منتقى التفاسير

تفسير سورة الذاريات

جمع واعداد
محمد مريس الحجاجي

Text On Photo

المنتقى في التفسير

[تفسير سورة { الذاريات }]

سُورَة الذَّارِيَات [مَكِّيَّة وَآيَاتهَا سِتُّونَ]

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأت السورة بالقسم بواو القسم والله –جل وعلا– له أن يقسم بما شاء من خلقه، التكليف إنما هو للجن والإنس، فالله – جل وعلا– يفعل ما شاء ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل.

"وَالذَّارِيَات" قال علي رضي الله عنه {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا([1]) } قال: هي الريح.

ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح.

ومنه قوله تعالى: {فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} [الكهف:٤٥]، ومعنى {تَذْرُوهُ} : ترفعه وتفرقه، فهي تذرو التراب والمطر وغيرهما (الاضواء).

"وريحٌ ذارِيَةٌ تَذْرُو التُّراب([2]) ومن هذا تَذْرِية الناس الحنطةَ وأَذْرَيْتُ الشيءَ إِذا أَلْقَيْتَه مثلَ إِلْقائِكَ الحَبَّ للزَّرْع ويقال للذي تُحْمَلُ به الحنطة لتُذَرَّى المِذْرى" (اللسان)

فالفعل منها يذرو ويذري بالياء وبالواو كيحثو ويحثي.

وجريان هذه الريح فيه من المصالح ما لا يعرف قدره الا الله تعالى ولولا جريانها لفسد عيش الناس فالوحيد الذي يستطيع اجراء الريح هو خالقها سبحانه قال تعالى {إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ} [(٣٣) سورة الشورى] يعني السفن فالريح مسخرة بامر الله تعالى وهي جند من جند الله ينفع بها من يشاء ويعاقب بها من يشاء فعنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَصَفَتْ الرِّيحُ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ قَالَتْ وَإِذَا تَخَيَّلَتْ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ

---

[1] –ذروا مصدر والمصدر هو أصل المشتقات، أصل اسم الفاعل، وأصل الفعل، وأصل اسم المفعول، وأصل أفعال التفضيل، وأصل صيغة المبالغة وغيرها من المشتقات، هو أصلها. تقول: ذرا يذرو ذرواً وضرب يضرب ضرباً، وهكذا، فالأول الماضي، ثم الثاني المضارع والثالث المصدر، مع أن المصدر هو أصل لجميع المشتقات بما فيها الأفعال.ففي تصاريف الكلمة يبدأون بالفعل الماضي ثم المضارع ثم المصدر، وإن كان الأصل هو المصدر.(شرح الجلالين لعبدالكريم الخضير).

[2] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ (ذَرُّونِي) فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَقَالَ اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ قَالَ يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ وَقَالَ غَيْرُهُ مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ" رواه البخاري

عَنْهُ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا }رواه مسلم.

قسم الله تعالى بالرياح يدل على شرفها ففي تصريف الرياح اية فهي انواع كثير منها الريح الطيبة ومنها ما يرسل عذابا ومنها ما يسوق السحاب ومنها ما يلقح النبات .

{فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا} المشهور انها السحاب قال علي هي السحاب وعن مجاهد قال: السحاب تحمل المطر. والوِقْر : الثِقْل.والوَقر يكون في الآذان وهو الصمم وعدم السمع.

قال الفراء : يقال : هذه نخلة مُوقِرة ومُوقَرة وموقِرٌ . وامرأة مُوقَرَة : إذا حَملتْ حمْلاً ثقيلاً .(تهذيب اللغة)

"ويدل لهذا القول تصريح الله جل وعلا بوصف السحاب بالثقال، وهو جمع ثقيلة، وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذي تحمله كقوله تعالى: {وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} [الرعد:١٢]، وهو جمع سحابة ثقيلة، وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ} [الأعراف:٥٧]."(الاضواء)

وقال بعضهم هي السفن تحمل الاثقال قال الشنقيطي " ولو قال قائل: إن الحاملات وقرا الرياح أيضا كان وجهه ظاهرا.

ودلالة بعض الآيات عليه واضحة، لأن الله تعالى صرح بأن الرياح تحمل السحاب الثقال بالماء، وإذا كانت الرياح هي التي تحمل السحاب إلى حيث شاء الله، فنسبة حمل ذلك الوقر إليها أظهر من نسبته إلى السحاب التي هي محمولة للرياح، وذلك في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ} [الأعراف:٥٧].

فقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً} ، أي حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا، فالإقلال الحمل، وهو مسند إلى الريح.

ودلالة هذا على أن الحاملات وقرا هي الرياح ظاهرة كما ترى، ويصح شمول الآية لجميع ذلك."

وبين التفسيرين تلازم فالرياح تحمل السحاب والسحاب يحمل المطر .لا مانع من حمل الاية على المعنيين والله تعالى اعلم.

{ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا } قال مجاهد : "السفن" تجري في الماء جريا سهلًا.

ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجري على السفن كقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ} [الشورى:٣٢]، وقوله: {إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة:١١]، وقوله تعالى: {وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} [الحج:٦٥] وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ} [الجاثية:١٢] وقوله تعالى: {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلام} أي كالجبال إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا هو المشهور في التفسير .

وقيل الجاريات الرياح، وقيل الكواكب تجري في افلاكها كما فسره بذلك ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

والجارية لفظ مشترك يطلق ايضا على البنت الصغيرة وعين الماء وعلى الصدقة بحسب السياق والمراد هنا السفن او الريح والله اعلم .

{ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا } قال علي هي الملائكة وقال مجاهد : الملائكة ينزلها بأمره على من يشاء. وقال ابن منظور " هي الملائكة تُقَسِّم ما وُكِّلت به " (اللسان).

وقال الشنقيطي في الاضواء " هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة، ولذا عبر عنها بالمقسمات، ويدل لهذا قوله تعالى: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً} [النازعات:٥]، فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم، كما وقع لقوم صالح.

والتحقيق أن قوله: {أَمْراً} مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع...(ك) قوله تعالى: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً} [الحج:٥]، والمقسم عليه بهذه الأقسام هو قوله: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذريات:٥-٦]، والموجب لهذا التوكيد هو شدة إنكار الكفار للبعث والجزاء."

وروي عن الحسن { المقسمات } السحب بقَسم الله بها أرزاق العباد».

قال ابن عجيبة في البحر المديد "ف « أمراً » هنا جنس ، وأنَّثَ « المقسّمات » لأن المراد الجماعات ، ويجوز أن يُراد الرياح في الكل ، فإنها تنشئ السحاب ، وتُقلّه ، وتُصرّفه ، وتجري به في الجو جرياً سهلاً ، وتقسّم الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار . ومعنى الفاء على الأول : أنه تعالى أقسم بالرياح ، فبالسحاب التي تسوقه ، فبالفلك الجارية بهبوبها ، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق ، وعلى الثاني : أنها تبتدئ بالهبوب ، فتذروا التراب والحصباء ، فتُقل السحاب ، فتجري في الجو باسطةً له ، فتقسّم المطر ."

لكن اذا فسرنا "المقسمات امرا" بـ "المدبرات امرا" والقران يفسر بعضه بعضا فليست هي الرياح قطعاً.

قال ابن كثير " فَأَمَّا الْجَارِيَاتُ يُسْرًا فَالْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهَا السُّفُنُ، تَجْرِي مُيَسَّرَةً فِي الْمَاءِ جَرْيًا سَهْلًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ النُّجُومُ تَجْرِي يُسْرًا فِي أَفْلَاكِهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ تَرَقِّيًا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، فَالرِّيَاحُ فَوْقَهَا السَّحَابُ، وَالنُّجُومُ فوق كذلك، وَالْمُقَسِّمَاتُ أَمْرًا الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ ذَلِكَ تَنْزِلُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ"

قوله تعالى{ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [الذاريات:٥]، "إِنَّمَا تُوعَدُونَ (، وما موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي توعدونه . ويحتمل أن تكون مصدرية ، أي أنه وعدكم أو وعيدكم ، إذ يحتمل توعدون الأمرين أن يكون مضارع وعد ومضارع أوعد ، ويناسب أن يكون مضارع أوعد لقوله :) فَذَكِّرْ بِالْقُرْءانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (، ولأن المقصود التخويف والتهويل ." (البحر المحيط).

كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران:٩]، وقوله: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ} [الأنعام:١٣٤]، وقوله تعالى: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} [الواقعة:٢] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قال الطاهر بن عاشور " وكتب في المصاحف { إنما } متصلةً وهو على غير قياس الرسم المصطلح عليه من بعد لأنهما كلمتان لم تَصيرا كلمة واحدة ، بخلاف { إنما } التي هي للقصر . ولم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه ."

{وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) } والدين : الجزاء يوم يدين الله العباد بأعمالهم.. والمراد إثبات البعث الذي أنكروه . { لواقع } لا محالة واقع في المستقبل بقرينة جعله مرتباً في الذكر على ما يوعدون .

فاذا وقع الحساب انقسم الناس الى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، ومن نوقش الحساب عُذب.

والله سبحانه يؤكد خبر يوم القيامة تارة بالقسم وتارة بنفي الريب عن وقوعه وتارة بامر النبي صلى الله عليه وسلم بالقسم عليه وغير ذلك.

قوله تعالى : { وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) }

{ ذَاتِ الْحُبُكِ }: أي ذات الخلق المستوي الجيد ، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع قال في الصحاح " حبك الثوب يحبكه بالكسر حبكا، أي أجاد نسجه. قال ابن الاعرابي: كل شئ أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته."

. وقال الحسن ، وسعيد بن جبير : { ذَاتِ الْحُبُكِ } : أي الزينة بالنجوم . وقال الضحاك : ذات الطرائق ، قالوا الحبك: الطرق، والحبيكة الطريقة وزناً ومعنىً([1]) . وقال ابن زيد : ذات الشدة ، لقوله تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً} [النبأ:١٢].

والعرب تسمي شدة الخلق حبكا، ومنه قيل للفرس الشديد الخلق: محبوك.

الآية تشمل الجميع، فكل الأقوال حق فلا يحتاج الى ترجيح بينها لانها كلها صحيحة . وإذا احتمل اللفظ معاني عدة، ولم يمتنع إرادة الجميع، حُمل عليها.

والمقسم عليه في هذه الآية هو قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ}

أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف، [يعني] ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

قال ابن القيم" القول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي وهو خرص كله فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب كما قال تعالى {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} أي مختلط ملتبس وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا

---

[1] – **فهم لهم طرق في ضبط الكلمات بالنظائر وبالضد، فهذا الذي يضبطون به أحياناً يوافق في اللفظ دون المعنى، وأحياناً يوافق في المعنى دون اللفظ، وأحياناً يوافق بالأمرين معاً فيكون الكلمة مساوية للأخرى وزناً ومعنى**.(التعليق على الجلالين عبدالكريم الخضير).

ثم أخبر سبحانه بسبب تكذيبهم بالحق أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فعن ههنا فيها طرف من معنى التسبيب كقوله {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ}

{ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ } أي من سبق في علم الله أنه يضل ويؤفك كقوله {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ}"

(يُؤْفَكُ (: أي يصرف عنه ، أي عن القرآن والرسول ، قاله الحسن وقتادة .) مَنْ أُفِكَ (: أي من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم لقوله : لا يهلك على الله إلا هالك . وقيل : من صرف في سابق علم الله تعالى أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي .([1])

قال في الصحاح " الإفْكُ: الكذبُ، .. ورجلٌ أَفّاكٌ، أي كذّابٌ. والأَفْكُ بالفتح: مصدر قولك أَفَكَهُ يَأْفِكُهُ أَفْكاً، أي قَلَبَهُ وصرفه عن الشيء ومنه قوله تعالى: " قالوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا " . ... وائْتَفَكَتِ البلدة بأهلها، أي انقلبتْ. والمؤْتَفِكاتُ: الرياح تختلف مهابُّها. تقول العرب: إذا كثرت المؤْتَفِكاتُ زَكَتِ الأرضُ."

١- " يصرف بسبب منه هو، الله –جل وعلا– بين له الطريقين، وضح له الصراط المستقيم، هداه النجدين، ومع ذلك اختار طريق الغواية، ولم يختر الهداية، جعل الله فيه –جل وعلا– من التركيب وحرية الاختيار ما يجعله يختار؛ لئلا يقول قائل: يؤفك يعني يصرف عنه عن النبي –عليه الصلاة والسلام– وعن القرآن وعن الإيمان به من صرف عن الهداية في علم الله تعالى، فيأتي هذا على مذهب الجبرية، قد يستدل به الجبرية، فيقولون: ما دام الصرف من الله –جل وعلا– فكيف يعاقب ويعذب والله –جل وعلا– هو الذي حال دونه ودون الهداية؟ نقول: نعم هذا في سابق علم الله –جل وعلا–، لكن ما الذي يمنعك من أن تختار طريق الهداية؟ يعني لو سمع الإنسان المؤذن، الإنسان سمع المؤذن وفي المكان ثلاثة، واحد قام مع الأذان، وواحد قام مع الإقامة، والثالث ما قام أصلاً، صلى في البيت، والرابع ما صلى أصلاً، إيش الفرق بين هؤلاء؟ هل في ما يمنع الإنسان .. ؟ هل قيد الرابع عن الصلاة؟ ألا يستطيع أن يقوم متى شاء؟ يستطيع أن يقوم متى شاء، فعنده حرية، وعنده اختيار، وليس بمجبور، وليست حركته كحركة الرياح ولا الورق، أوراق الشجر في مهب الرياح، إنما هو مختار، قادر، لديه قدرة وله حرية وله اختيار وله مشيئة، لكن كل ذلك في إطار قدرة الله –جل وعلا– ومشيئته {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى} [(١٧) سورة الأنفال] يعني ما أصبت إذ حذفت الحجر، لكن الله –جل وعلا– هو الذي أصاب، لكن أثبت له الرمي، وأما الإصابة فمن الله –جل وعلا–،.... وأعظم من يصرف المتكبر {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ} [(١٤٦) سورة الأعراف] وهل هذا من فعله أو مجبر عليه؟ الكبر من فعله وإلا مجبر عليه؟ من فعله بطوعه وحريته واختياره يتكبر، فيستحق الصرف عن هذا...

المعتزلة يقولون: إن العرب لديهم القدرة على معارضة القرآن، والإتيان بمثله، والقرآن من هذه الحيثية ليس بمعجز؛ لأن العرب يستطيعون، لكن الله صرفهم عن ذلك، ويقولون: بالصرفة، الصرفة هي صرف العرب عن معارضة القرآن، القدرة موجودة، يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن، أو قد يتطاول بعضهم ويقول: أعظم، لكن الله –جل وعلا– حال بينهم وبين ما يستطيعون، نقول: هذا الكلام باطل، هذا الكلام باطل، لو كان بعضهم لبعض ظهيراً ما استطاعوا، لو اجتمع الجن والإنس ما استطاعوا أن يعارضوه،"(التعليق على الجلالين لعبد الكريم الخضير)

والافك هو الكذب الفاحش القبح مثل الكذب على الله ورسوله أو على القرآن .

و"عن" بمعنى السببية عند ابن كثير أي يضل بقولكم هذا من اراد الله شقاءه وضلاله .كما قال تعالى عن قوم عاد { وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك}

واختار ابن جرير ان عن على اصلها أي فيصرف عن الايمان بهذا القران من ضل.

وقوله: { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } قتل بمعنى لعن ([1]) قال مجاهد: الكذابون. عن ابن عباس: { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } أي: لعن المرتابون.

قال الطبري "قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات: ١٠] قَالَ: " الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَخَرَّصُونَ الْكَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّمَا هُوَ سَاحِرٌ، وَالَّذِي جَاءَ بِهِ سِحْرٌ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّمَا هُوَ شَاعِرٌ، وَالَّذِي جَاءَ بِهِ شِعْرٌ؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّمَا هُوَ كَاهِنٌ، وَالَّذِي جَاءَ بِهِ كَهَانَةٌ؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان: ٥] يَتَخَرَّصُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

"خرَصَ يَخْرُصُ بالضم خَرْصاً وتخَرّصَ أَي كَذَب ورجل خَرّاصٌ كذّابٌ وفي التنزيل قُتِل الخرّاصُون قال الزجاج الكذّابون وتَخَرَّصَ فلانٌ على الباطل واخْتَرَصَه أَي افْتَعَله قال ويجوز أَن يكون الخَرّاصُون الذين إِنما يَظُنّون الشيءَ ولا يَحُقُّونَه فيعملون بما لا يعلمون "(اللسان)

الذين يقولون بالتخمين، ولا يبنون الأقوال على حقائق، بل يقولون بالتخمين والظنون بلا دلائل ولا بينات.

وهكذا كان معاذ، رضي الله عنه، يقول في خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

وقوله: { الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ } في جهل يغمرهم وقيل أَيْ فِيمَا يَغْمُرُ قُلُوبَهُمْ مِنْ حُبّ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا ، {سَاهُونَ} لَاهُونَ غَافِلُونَ عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَمَا خُلِقُوا لَهُ ، وَالسَّهْوُ: الْغَفْلَةُ عَنِ الشَّيْءِ، وَهُوَ ذَهَابُ الْقَلْبِ عَنْهُ.

قال ابن تيمية في الفتاوى " فَالْغَمْرَةُ تَكُونُ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى ، وَالسَّهْوُ مَنْ جِنْسِ الْغَفْلَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ : " السَّهْوُ " الْغَفْلَةُ عَنْ الشَّيْءِ وَذَهَابُ الْقَلْبِ عَنْهُ وَهَذَا جِمَاعُ الشَّرِّ " الْغَفْلَةُ " وَ " الشَّهْوَةُ " " فَالْغَفْلَةُ " عَنْ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ تَسُدُّ بَابَ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ الذِّكْرُ وَالْيَقَظَةُ . وَ " الشَّهْوَةُ " تَفْتَحُ بَابَ الشَّرِّ "

وقال ابن القيم " ولما كان هذا القول المختلف خرصا وباطلا قال {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} أي المكذبون {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} جهالة قد غمرت قلوبهم أي غطتها وغشتها كغمرة الماء وغمرة الموت فالغمرات ما غطاها من جهل أو هوى أو سكر أو غفلة أو حب أو بغض أو خوف أو غم ونحو ذلك قال تعالى {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا} أي غفلة وقيل جهالة ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة والسهو لا يستلزم ذلك""([1])

---

[1] – **القتل يأتي بمعنى اللعن ((قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يعني لعنهم، وجاء في الحديث الصحيح ((لعن المؤمن كقتله)) فكما ان القتل ابعاد جسدي عن الحياة الدنيا فاللعن دعاء ان يبعده عن رحمة الله في الاخرة وكلاهما فيه ضرر شديد .**

{ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ } : وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: { يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ } .وعلى بمعنى في .

---

١ – " ويدخل في هذا دخولاً أولياً الكفار الذين غفلتهم تامة، ويخشى على من غفل عما خلق له أن يخرج منه وهو لا يشعر، وإن كان ممن ينتسب إلى القبلة؛ لأن هذه الغمرات، وهذه الغفلة نسبية، يعني يدخل الماء الذي يغطي عقبيه ثم يقتحم إلى ركبتيه، ثم لا يلبث أن يغمره الماء فيغرقه، هذا الغافل عما خلق له، يغفل عن الواجبات، ثم يبتلى بارتكاب محظورات، ثم يعاقب بارتكاب ما هو أعظم منها إلى أن ينسلخ من دينه بالكلية، فهذه الغفلة وهذا السهو عما خلق له الإنسان لا شك أنه يعرض الإنسان للانسلاخ؛ ليكون من جنس أولئك الخراصين

والعقوبات الإلهية لمن خالف الأوامر والنواهي لا شك أنها واقعة ومحسوسة؛ لأن الإنسان قد يضعف في فعل المستحب، يعني يتساهل في الرواتب، يتساهل في قيام الليل ثم لا يلبث أن تدعوه نفسه إلى التساهل في الواجبات، ثم إذا تساهل في الواجبات دعته نفسه إلى ما هو أوجب منها وهكذا، وكذلك في المحظورات، يعني مثل نشوء البدع، نشأت يعني يسيرة، فعوقب أهلها بما هو أشد منها، بأن أصروا عليها وألزموا بلوازم، أصروا عليها ودعوا إليها، وألزموا بلوازمها فالتزموا، فالتزموا، ثم بعد ذلك أخذتهم العزة بالإثم وأصروا على هذه اللوازم ثم عوقبوا بما هو أعظم منها، عوقبوا بما هو أعظم منها، يعني الإنسان يسمع كلام من المبتدعة ما يصدر ولا عن مجنون، يعني شراح ومفسرين يشرحون ويفسرون كلام الله –جل وعلا–، ويشرحون كلام النبي –عليه الصلاة والسلام– ومع ذلك يذكرون في هذه الكتب أشياء مضحكة، يعني لديهم عقول، ولديهم أفهام، ولديهم تحليل يعني يبهر القارئ، لكن أحياناً يعاقب بشيء فيأتي بكلام مضحك، يعني الأشعرية حينما قالوا –وهذا موجود في شروح البخاري– حينما يقولون: إن أعمى الصين يجوز أن يرى بقة الأندلس، هذا يعني لو سمعه الإنسان أول مرة قال: جنون هذا ما في إشكال، ما يستطيع البقة إذا أبعدت عنه متر، إذا أبعدت متر واحد ما شافها، وكل عاد على حسبه في قوة النظر، لكن عشرة أمتار على أي حال ما ترى البقة صغار البعوض، كيف أعمى الصين في أقصى المشرق يرى بقة الأندلس؟! يعني هل يمكن أن يخطر على قلب عاقل مثل هذا الكلام؟ إلا أنهم ألغوا الأسباب تأثير الأسباب، وقالوا: إن البصر سبب، والشيء يحصل عنده لا به، ثم استدرجوا إلى أن قالوا ما قالوا، فمثل هذه الأمور يخشاها الإنسان ويقف عندها، ولا يتعدى النص؛ لأن العصمة إنما هي بالكتاب والسنة، يعني شيء لا يخطر على البال حينما يقرأ لابن عربي:

ألا بذكر الله تزداد الذنوبُ ... وتنطمس البصائر والقلوبُ

هذا كيف يزعم أنه مسلم؟ والله –جل وعلا– يقول: {أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [(٢٨) سورة الرعد] وهو يقول: تزاد الذنوب؟ وإن أوله من أوله من أتباعه، لكن يبقى أن الإنسان أول ما يصل من هذا الكلام، يقول: نسبته ليست صحيحة إلا إذا كان كافر غير مسلم، لكنه صحيح وثابت ومدون في كتبه، فعلى الإنسان ألا يبتعد لا يمين ولا شمال، لا أمام ولا خلف في دائرة الاستقامة والالتزام، في دائرة الاعتصام بالكتاب والسنة ليحفظ، ليحفظ في علمه، يحفظ في دينه، أهم المهمات كونه يزيغ ويضل ولو حفظ في ماله، ولو حفظ في بدنه هذه أمور منتهية، العبرة بمن يحفظ في دينه، بمن يحفظ في علمه، لا يزل ولا يَضل، ولا يُضل، ولا يكون ممن يكون سبباً لغواية الناس –نسأل الله السلامة والعافية–، وأنتم سمعتم وقرأتم من كان يفتي الناس على الجادة وبقال الله وقال رسوله، ثم بعد ذلك حصل أن زل، مثل هذه الأمور على الإنسان أن يحتاط لها، سواءً كانت في العلم أو في العمل. "(تعليق عبدالكريم الخضير على الجلالين).

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: { يفتنون }([1]) : يعذبون [قال مجاهد] : كما يفتن الذهب على النار.

وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعِي، وزيد بن أسلم، وسفيان الثوري: { يفتنون } : يحرقون.

{ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ } : قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. { هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } : أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا.

[١١] { الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ } ، غفلة وعمى وجهالة، { سَاهُونَ } لاهون غافلون عن أمر الآخرة، والسهو: الغفلة عن الشيء، وهو ذهاب القلب عنه.

---

[1] – قال ابن الجوزي في نزهة الاعين النواظر في علم الوجوه والنظائر " وذكر بعض المفسرين أن الفتنة في القرآن على خمسة عشر وجها : –

أحدها : الشرك . ومنه قوله تعالى في البقرة : { وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة } ، وفيها : { والفتنة أشد من القتل } ، وفي الأنفال : { حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله } .

والثاني : الكفر . ومنه قوله تعالى في آل عمران : { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة } .

وكذلك كل فتنة مذكورة في حق المنافقين واليهود .

والثالث : الابتلاء والاختبار . ومنه قوله تعالى في طه : { وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا } ، وفي العنكبوت {وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم } .

والرابع : العذاب . ومنه قوله تعالى في النحل : { ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا } ، وفي العنكبوت : { جعل فتنة الناس كعذاب الله }.

والخامس : الاحراق بالنار . ومنه قوله تعالى في الذاريات : { يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم } ، وفي البروج : { إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات } .

والسادس : القتل . ومنه قوله تعالى في سورة النساء : { إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا } ، وفي يونس : { على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم } .

والسابع : الصد . ومنه قوله تعالى في المائدة : { واحذرهم أن يفتنوك } ، وفي بني إسرائيل : { وإن كادوا ليفتنوك }.

والثامن : الضلالة . ومنه قوله تعالى في المائدة : { ومن يرد الله فتنته} ، وفي الصافات : { ما أنتم عليه بفاتنين} .

والتاسع : المعذرة . ومنه قوله تعالى [في الأنعام] : { ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين }.

والعاشر : العبرة . ومنه قوله تعالى في يونس : { ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين } ، وفي الممتحنة : { ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا } .

والحادي عشر : الجنون . ومنه قوله تعالى في نون والقلم : {بأيكم المفتون} .

والثاني عشر : الأثم . ومنه قوله تعالى في براءة : { ألا في الفتنة سقطوا } .

والثالث عشر : العقوبة – ومنه قوله تعالى في النور : { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة }.

والرابع عشر : المرض . ومنه قوله تعالى في براءة :{ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين } .

والخامس عشر : القضاء . ومنه قوله تعالى في الأعراف : { إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء }".

[١٢] { يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ } ، يقولون: يا محمد متى يوم الجزاء، يعني يوم القيامة سؤال تكذيب واستهزاء.لا طلبا للفائدة.

وهذا اليوم قد اخفى الله تعالى علمه عن جميع الخلائق كما في حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ
كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ }
الْآيَةَ ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ
قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ جَعَلَ ذَلِك كُلَّهُ مِنْ الْإِيمَانِ .(رواه البخاري ومسلم).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ السَّاعَةِ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ
قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ.(رواه البخاري ومسلم).

قال الله عز وجل: { يَوْمَ هُمْ } ، أي يكون هذا الجزاء في يوم هم { عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ } ، ابن عباس –من طريق حُصين– في قوله} :يَوْمَ هُمْ عَلى النّارِ يُفْتَنُونَ{، قال :يُعذّبون في النار، يُحرقون فيها، ألم ترَ أنّ الذَّهب إذا أُلقي في النار قيل :فُتِن؟ قال ابنُ جرير (٢١/ ٤٩٨): «الفتنة أصلها: الاختبار، وإنما يقال: فتنت الذهب بالنار: إذا طبختها بها لتعرف جودتها؛ فكذلك قوله: {يوم هم على النار يفتنون} يُحرقون بها كما يُحرق الذهب بها.«.

وقيل: على بمعنى الباء أي بالنار، وتقول لهم خزنة النار:

وقال ابن القيم في التبيان في اقسام الفران " والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون ولكن لفظة على تعطي معنى زائدا على ما ذكروه ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يوم هم في النار يفتنون ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم على بمعنى في كما تكون في بمعنى على .

والظاهر أن فتنتهم على النار قبل فتنتهم فيها، لهم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولهم والتعذيب بها فتنة أشد منها. وحقيقة الأمر أنّ الفتنة تُطلق على: العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر: فتنة، فهم لما أتَوا بالفتنة التي هي أسباب

العذاب في الدنيا سمّى جزاءهم: فتنة، ولهذا قال: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها مِن أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها "

[١٤] { ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ } قال عكرمة :تكذيبكم، به تُكذِّبون) وقال قتادة بن دعامة :ذوقوا عذابكم

{ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } ، في الدنيا تكذيبا به. ١٥،" والمراد بالفتنة العذاب وهو مذكر، فعادت الإشارة إلى المعنى لا إلى اللفظ، وإلا فاللفظ مؤنث، ذوقوا فتنتكم تعذيبكم هذا التعذيب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا "

ثم بعد أن ذكر حال الأشقياء ومآلهم ذكر حال أو ثنى بحال السعداء، وهذا وجه من وجوه تسمية القرآن بالمثاني، يعني يذكر حال الأشقياء ثم يثني بحال السعداء والعكس قد يذكر حال السعداء ثم يثني بحال الأشقياء، فقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ}

[(١٥) سورة الذاريات] المتقون هم من لازم التقوى، والتقوى فعل الأوامر واجتناب النواهي،

[١٦] { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }([1]) والتقوى هي ان تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل ما امر واجتناب ما نهى فلا يجدك حيث نهاك ولا يفقدك حيث امرك.

قال الشنقيطي" لا يخفي على من عنده علم بأصول الفقه أن هذه الآية الكريمة فيها الدلالة المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإيماء والتنبيه([2]) على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله ... وكون التقوى سبب دخول الجنات الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً} [مريم:٦٣] .

فالتقوى سبب نيل جنات النعيم بعد رحمة الله عز وجل .كما ان الحكم المعلق على وصف يزيد يزيادته وينقص بنقصانه فنعيم اهل الجنة يتفاوت بحسب تفاوت تقواهم .

---

[1] – عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا .رواه البخاري.

عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ سَمِعْتُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَرْفَعُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً قَالَ هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ ادْخُلْ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ فَيُقَالُ لَهُ أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ قَالَ رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ }الْآيَةَ. رواه البخاري.

[2] – قال الشنقيطي في تعريف دلالو الايماء "" أن يذكر وصف مقترن بحكم في نص من نصوص الشرع على وجه لو لم يكن ذلك الوصف علة لذلك الحكم لكاتن الكلام معيباً . ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي قال له : هلكت وأقعت أهلي في نهار رمضان . أعتق رقبة ، فلو لم يكن ذلك الوقاع علة لذلك العتق كان الكلام معيباً ."مذكرة اصول الفقه.

"{ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ } قال عبد الله بن عباس في قوله :{آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ} قال: الفرائض، {إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِين} قال: قبل أن تنزل الفرائض يعملون .

وقال سعيد بن جُبَير} :آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ {آخذين بما أمرهم ربُّهم، عاملين بالفرائض التي أوجبها عليهم.

وقال مقاتل بن سليمان :{إِنَّ المتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ وعُيُونٍ} يعني: بساتين وأنهار جارية،{آخِذِينَ} في الآخرة {ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ} يعني: ما أعطاهم ربهم مِن الخير والكرامة في الجنة؛ {إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ} الثواب في الدنيا {مُحْسِنِينَ}في أعمالهم) .

قال ابن جرير: أي عاملين ما أمرهم به ربهم، مؤدين فرائضه. وانتقد ابنُ كثير (١٣/ ٢١١) أثر ابن عباس، فقال: «وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبي شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي عمر البزار، عن مُسْلِم البَطِين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فذكره». ثم انتقد -مستندًا إلى اللغة- تفسير ابن جرير الآية على ما جاء في قول ابن عباس، فقال: «والذي فسّر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: {آخذين} حال من قوله: {في جنات وعيون}، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم، أي: من النعيم والسرور والغبطة.«

وقد ذكر ابنُ عطية (٥/ ١٧٤) عن جماعة من المفسرين: أن «معنى قوله: {آخذين ما آتاهم ربهم} أي: مُحصّلين لنعم الله التي أعطاهم من جنته ورضوانه». ووجَّهه بقوله: «وهذه حال متصلة في المعنى بكونهم في الجنات». ثم رجَّحه قائلًا: «وهذا التأويل أرجح عندي؛ لاستقامة الكلام به.«

ف{آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ} [(١٦) سورة الذاريات] يعني أعطاهم ربهم من الثواب والجزاء، فالجنة لا تنال بالعمل، إنما تنال برحمة أرحم الراحمين، لكن منازل هذه الجنة تنال بالأعمال.

{ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ } في دار الدنيا قبل دخولهم الجنة،وهذا تعليل لسبب دخولهم الجنة { مُحْسِنِينَ } ، في الدنيا. فإحسان العمل المعول عليه في القبول {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [(٣٠) سورة الكهف] لم يقل من أكثر، لا، من أحسن، فالمعول على الإحسان ، والإحسان يشمل العمل اللازم والعمل المتعدي، محسنين لصلواتهم، متقنين لها، مقيمين لها، محسنين لسائر عباداتهم من صيامهم وحجهم، محسنين أيضاً للأعمال المتعدية لزكواتهم، لكسبهم الأموال من حلها، وصرفها فيما يرضي الله -جل وعلا-، فالإحسان ملازم لهم في جميع تصرفاتهم، إنهم كانوا قبل ذلك، قبل دخول الجنة محسنين أي في الدنيا، ثم بين بعض أعمالهم.

وفي حديث جبريل قال: (الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه)، فيعبدونه موقنين ومستحضرين أن الله يرى مقامهم ويسمع كلامهم، كما قال تعالى: { الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ } [الشعراء:٢١٨-٢١٩]، ففي ممشاهم يشعرون أن الله يراهم، وفي مجلسهم يشعرون أن الله يراهم، وفي عبادتهم يشعرون أن الله يراهم، وهذه من صور الإحسان.

ومن صور الإحسان التي تخلقوا بها: العفو عن الناس، فإن هذا من أخلاق المحسنين، قال الله سبحانه وتعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران:١٣٤].

[١٧] { كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ } ، والهجوع النوم بالليل دون النهار،

عن عبد الله بن عباس قال :ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يُصبحوا لا يُصلُّون فيها، وقال ايضا : قليلًا ما كانوا ينامون.

عن مطرّف: قلّ ليلة أتت عليهم، إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها.

وعن الحسن قال: لا ينامون من الليل إلا أقله، كابدوا قيام الليل.

وقال ابو العالية وابراهيم النخعي : قليلًا ما ينامون.

قال محمد بن شهاب الزُّهريّ : كانوا يُصَلُّون كثيرًا من الليل

وعن الأحْنَف بن قيس قال :كانوا لا ينامون إلا قليلًا

وقرأ هذه الآية فقال: لست من أهل هذه الآية.

وهكذا نحن أيضاً ينبغي أن نقبل على كتاب الله فننزل آياته على أنفسنا لننظر: هل نحن من أهلها؟ وهل نحن من العاملين بها، أم لسنا كذلك؟ فهل نحن من أهل قول الله سبحانه: { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا } [الفرقان:٦٤] ، ويقولون: { رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا } [الفرقان:٦٥] هل نحن أيضاً من أهل قول الله سبحانه وتعالى: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [السجدة:١٦]؟ فاقرأ القرآن قراءة المتأمل المتدبر المتفكر.

قال ابن تيمية " هو مفسر فى سورة المزمل بقوله (قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (فهذا المستثنى من الأمر هو القليل المذكور فى تلك السورة وهو قليل بالنسبة إلى مجموع الليل والنهار فانهم اذا هجعوا ثلثه أو نصفه أو ثلثاه فهذا قليل بالنسبة إلى ما لم يهجعوه من الليل والنهار وسواء ناموا بالنهار أو لم يناموا"

" وما زائدة" يعني كانوا قليلاً من الليل يهجعون، زائدة يعني صلة كما يقول المفسرون كالطبري وغيره يقولون: صلة، ويريدون بذلك زائدة، لكن من الأدب أن لا يقال: زائدة؛ لأن القرآن مصون ومحفوظ من الزيادة والنقصان ولو باللفظ، يعني لا يقول قائل: إنها مادامت زائدة لماذا لا نمسحها؟ لو مسحتها كفرت، حتى الذي يقول: زائدة لو يمسحها كفر، إنما تزاد بعض الحروف دعامة للكلام، دعامة للكلام وتقوية له."

وهذه الاقوال مبنية على ان ما صلة او موصولة او مصدرية ..

وعن الضَّحّاك بن مُزاحِم –من طريق عبيد –في قوله :{ كانُوا قَلِيلًا} يقول: المحسنون كانوا قليلًا، هذه مفصولة، ثم استأنف، فقال : { مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُون} الهُجوع النوم .

فجعل ما نافية أي لا يهجعون فرد ذلك غير واحد قال ابن القيم " وهذا ضعيف لوجوه

(أحدها) أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقوق هذا الجزاء .

(الثاني) أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله .

(الثالث) أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه و سلم وما قام ليلة حتى الصباح .

(الرابع) أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا من الليل كله فقال { ومن الليل فتهجد به } .

(الخامس) أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف أو النقصان منه أو الزيادة عليه فذكر له هذه المراتب الثلاثة ولم يذكر قيامه كله .

(السادس) أنه صلى الله عليه و سلم لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال [يا عثمان أرغبت عن سنتي ؟ قال : لا والله يا رسول و لكن سنتك أطلب قال : فإني أنام وأصلي وأصوم وأفطر وأنكح النساء فاتق الله ياعثمان فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا فصم وأفطر وصل ونم] ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت حبلا بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله.([1])

(السابع) أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت { تتجافى جنوبهم عن المضاجع } وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة ولهذا جازاهم عن هذا التجافي – الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة – بقرة الأعين –.

(الثامن) أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية – لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلا فروى بجبر بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون } قال : كانوا يصلون مابين المغرب والعشاء([2])

(التاسع) أن في هذا التقرير تفكيكا للكلام وتقديما لمعمول العامل المنفى عليه لأنك تجعل قليلا مفعول يهجعون وهو منفى والبصريون لا يجيزون ذلك وإن أجازه الكوفيون وفصل بعضهم فأجازه في الظرف ولم يجزه في غيره."

والاية تدلك على فضل صلاة الليل كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل . رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه .

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن جاءه فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب .

قال فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام . رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

---

[1] –عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا.رواه البخاري ومسلم.

[2] –وان كان هذا لا يسمى قياما لليل.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له لم تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا . رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها فقال أبو مالك الأشعري لمن هي يا رسول الله قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام . رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن والحاكم وقال صحيح على شرطهما.

قوله تعالى { وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }([1])

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم –من طريق ابن وهب –أنه سمعه يقول :السَّحَر: هو السُّدس الأخير من الليل.

قال الحسن مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون

وقال ايضا : لا ينامون من الليل إلا أقله، وربما نشطوا فمدوا إلى السحر، ثم أخذوا في الأسحار بالاستغفار.

وقال الكلبي ومجاهد ومقاتل : وبالأسحار يصلون، وذلك أن صلاتهم بالأسحار طلب المغفرة.

قال الرازيّ: في الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجّدون ويجتهدون، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك، وأخلص منه، فيستغفرون من التقصير. وهذا سيرة الكريم: يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله، ويعتذر من التقصير. واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره، ويمنّ به.

وقد كان من هدي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ختمُ الأعمال الصالحة بالاستغفار، فقد ثبت في صحيح مسلم: ((أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً))([رواه مسلم])،وختم – سبحانه – سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله : { وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) } ، وقال تعالى في آيات الحجِّ: { ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) }([٥])، والمراد بالإفاضة هنا أي إلى منى يوم العاشر من ذي الحجة ، حيث يقوم الحاجُّ بإكمال أعمال حجهم التي هي خاتمة أعماله .

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية مبينا أنَّ الحكمة من ذلك ليكون جابراً لما حصل من العبد من نقص، ولما وقع منه من خلل أو تقصير : ((فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذِكْرُ اللهِ شُكْرُ اللهِ على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنَّة الجسيمة، وهكذا ينبغي للعبد كلَّما فرغ من عبادة أن يستغفرَ الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمَن يرى أنَّه قد أكملَ العبادةَ ومنَّ بها على ربِّه، وجعلت له محلاًّ ومنزلةً رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل كما أنَّ الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أُخر)). اهـ.

---

[1] – **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ.رواه البخاري.**

قوله عز وجل: { وَفِي أَمْوَالِهِمْ} أضيفت الأموال إليهم إضافة ملك، يملكونها، وإن كان هو وما يملك ملك لله -جل وعلا-، {وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ} [(٣٣) سورة النور] فالمال لله، ويملكه باعتبار الملك البشري، بحيث أنه يسوغ له شرعاً أن يتصرف فيه تصرفاً مضبوطاً بضوابط شرعية، ليس بتصرف مطلق أو مرسل عن الضوابط الشرعية لا، فهو ماله باعتبار أنه يتصرف فيه، لكنه مال الله بحيث لا يتصرف فيه إلا على ضوء مراد الله -جل وعلا-.

{ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ } ، السائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي ليس له في الغنيمة سهم، ولا يجري عليه من الفيء شيء، هذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب، ومعناه في اللغة: الذي منع الخير والعطاء.

وقال قتادة والزهري : المحروم المتعفف الذي لا يسأل. وقال محمد بن كعب القرظي، قال: المحروم صاحب الحاجة، ثم قرأ: { إِنَّا لَمُغْرَمُونَ }{ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ } .

قال ابن الجوزي في زاد المسير "وأظهر الأقوال قول قتادة والزهري ، لأنه قرنه بالسائل ، والمتعفِّف لا يَسأل ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل ثم يتحفظ بالتعفُّف من ظُهور أثر الفاقة عليه ، فيكون محروما من قِبَل نفسه حين لم يَسأل ، ومن قِبَل الناس حين لا يُعطونه ، وإنما يفطن له متيقِّظ . وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، ولا يصح ."([1])

وهذا من باب التفسير بالمثال فهذه ونحوها مما ذكره اهل التفسير كلها صحيحة.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ .متفق عليه.

والمعنى الجامع لها أن المحروم الذي حرمه الله المال بأي وجه كان" وهذا المحروم لم يجمع الله تعالى عليه حرمانين لما حُرم قدراً أمر ان يُعطى شرعاً.

قال ابن جزي "والحق هنا نوافل الصدقات وقيل المراد الزكاة وتسمية النوافل بالحق كقوله حقا على المحسنين وإن كان غير واجب وقال بعض العلماء حق سوى الزكاة ورجحه ابن عطية.

وذكر ابنُ جرير (٢١/ ٥١٨) الأقوال، ثم رجّح صحّة جميعها -مستندًا إلى العموم- فيها، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي: أنه الذي قد حُرم الرزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد يكون بسبب تعفّفه وتركه المسألة، ويكون بأنّه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن تعم، كما قال -جلَّ ثناؤه-: {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم}.

---

[1] – **رجح ابنُ عطية (٨/ ٦٨) أن هذه الآية محكمة، فقال: «الصحيح أنها محكمة، وأن هذا الحق هو على وجه الندب، لا على وجه الفرض...وقال قوم من المتأولين: كان هذا ثُم نُسخ بالزّكاة، وهذا غير قوي، وما شرع الله – عز وجل – بمكة قبل الهجرة شيئًا من أخذ الأموال.**«

وقال ابنُ عطية (٨/ ٦٨): «واختلف الناس في المحروم اختلافًا هو عندي تخليط من المتأخرين؛ إذ المعنى واحد، وإنما عبّر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات، فجعلها المتأخرون أقوالًا». ثم رجّح: «أنه الذي لا مال له لحرمانٍ أصابه، وإلا فالذي تُصاب ثمرته وله مال كثير غيرها فليس في هذه الآية بإجماع .«

قال تعالى {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [(٢٤ – ٢٥) سورة المعارج](١) فالمعلوم والمحدد شرعاً هو هي التي لها أنصبة ولها فروض ولها حق المعلوم بالتحديد من الشارع إنما هو في الزكاة، أما الصدقات المندوبة ليس لها ضابط يضبطها تأتي من ((ولو بشق تمرة)) إلى أن تبرع أبو بكر بجميع ماله، هذا كله من المندوب، وليس بمعلوم .

فمن قوله تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } [الذاريات:١٦]، يؤخذ أن فعل الإحسان يقتضي أن يزيد المحسن على الفرض شيئاً ليس مفروضاً عليه، فهذا يقوي قول من قال: { وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ } [المعارج:٢٤]، إنهم جعلوا على أنفسهم في أموالهم حقاً معلوماً، فاقتطعوا جزءاً من أموالهم لم يوجبه الله سبحانه وتعالى عليهم، وجعلوه لأهل الفقر، ولأهل المسكنة، وللمحرومين والسائلين.

فهذه القرينة التي هي:{ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين} حملت بعض المفسرين على أن يقولوا: إن الحق المعلوم هنا حق آخر سوى الزكوات المفروضة، شأنهم شأن ذلك الرجل الذي ورد ذكره في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلَانٌ لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ"

فقد جعل هذا الرجل على نفسه حقاً معلوماً لم يوجبه الله سبحانه وتعالى عليه، وإنما كان الواجب عليه الزكاة.

أما الوجهة التي قوى بها العلماء الرأي القائل بأن هذا الحق هو الزكاة المفروضة، فهو كلمة (معلوم) أي: حق محدد، حدد بأنصبة الزكوات.

قال ابن كثير . رحمه الله . في تفسيره :"لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: { وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة."

---

١ – قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الايمان" لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ أَيْ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ يَجِبُ بِسَبَبِ الْمَالِ سِوَى الزَّكَاةِ وَإِلَّا فَفِيهِ وَاجِبَاتٌ بِغَيْرِ سَبَبِ الْمَالِ كَمَا تَجِبُ النَّفَقَاتُ لِلْأَقَارِبِ وَالزَّوْجَةِ وَالرَّقِيقِ وَالْبَهَائِمِ وَيَجِبُ حَمْلُ الْعَاقِلَةِ وَيَجِبُ قَضَاءُ الدُّيُونِ وَيَجِبُ الْإِعْطَاءُ فِي النَّائِبَةِ وَيَجِبُ إطْعَامُ الْجَائِعِ وَكُسْوَةُ الْعَارِي فَرْضًا عَلَى الْكِفَايَةِ ؛ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْوَاجِبَاتِ الْمَالِيَّةِ . لَكِنْ بِسَبَبِ عَارِضٍ "

وقال ابن خزيمة في صحيحه :فرض الزكاة كان قبل الهجرة. واحتج بما أخرجه من حديث أم سلمة في قصة هجرتهم إلى الحبشة وفيها أن جعفر بن أبي طالب قال للنجاشي في جملة ما أخبره به عن النبي صلى الله عليه و سلم ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .قال العلماء :ولا يلزم من ذلك أن يكون المراد بالصلاة الصلوات الخمس ولا بالصيام صيام رمضان ولا بالزكاة هذه الزكاة المخصوصة ذات النصاب والحول. فقد صح أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصومون عاشوراء قبل فرضية الصيام وكانوا أيضاً يصلون ويتصدقون بما جادت به أنفسهم لإخوانهم الفقراء في مكة.

ويقول ابن حجر في الفتح أيضاً :ومما يدل على أن فرض الزكاة كان قبل التاسعة حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة وقوله أنشدك الله. آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ وكان قدوم ضمام سنة خمس. ومما يدل على أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة اتفاق العلماء على أن صيام رمضان إنما فرض بعد الهجرة لأن الآية الدالة على فرضيته مدنية بلا خلاف وثبت عند أحمد وابن خزيمة أيضا والنسائي وابن ماجة والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ثم نزلت فريضة الزكاة فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله. إسناده صحيح رجاله رجال.

وقال القاري :المعتمد أن الزكاة فرضت بمكة إجمالاً، وبينت بالمدينة تفصيلاً، جمعا بين الآيات التي تدل على فرضيتها بمكة وغيرها من الآيات والأدلة.

فقبل الهجرة :فُرض أصل وجوب الصدقة بشكل عام، مع آيات تحث على الإنفاق وحق الفقير في المال.

وبعد الهجرة (السنة الثانية) تم تحديد وتفصيل مقادير الزكاة (كالذهب والفضة والأنعام والزروع) ومصارفها، وتطبيقها بشكل عملي. والله تعالى اعلم.

قال تعالى { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ } لا يمكن حصرها ولو ذهب الناس يعددونها لاستغرق منهم اوقاتا طويلة ،كالجبال والأنهار والأشجار والثمار وغير ذلك من عجائب المخلوقات .فيها عبر، { لِلْمُوقِنِينَ }بالله عز وجل الذين يعرفونه بصنعه ، إذا ساروا فيها متأملين معتبرين.

وانما ينتفع بالآيات اهل اليقين التام والتصديق بما جاء عن الله وعن رسوله –عليه الصلاة والسلام – كما قال تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} [(١٩٠) سورة آل عمران] ثم قال {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ} [(١٩١) سورة آل عمران] واما أهل الغفلة ليس لهم نصيب من ذلك،

وفي الاية قدم الخبر على المبتدأ.

{ وَفِي أَنْفُسِكُمْ } آياتٌ إذ كنتم نُطَفاً ، ثم عظاماً ، ثم عَلَقاً ، ثم مُضَغاً ، الى ان نفخ فيه الروح إلى غير ذلك من أحوال الاختلاف ، ثم اختلاف الألسنة والصُّوَر والألوان والطبائع ، وتقويم الأدوات ، والسمع والبصر والعقل ، وتسهيل سبيل الحدث ، إلى غير ذلك من العجائب المودَعة في ابن آدم . والتي لا يعرف قدرها الا عند فقدها نسألأ الله العافية.

ثم قال : { أَفَلَا تُبْصِرُونَ } ، قال مقاتل : أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث.

يعني من الغفلة أن يطلب الإنسان الشيء البعيد ويترك القريب، يطلب وينظر إلى الشيء البعيد والذي بين يديه يتركه لا ينظر في خلقه، لا يتفكر في خلقه، ليرى العجب العجاب.

والبصر كما يكون بالعين يكون أيضاً بالبصيرة، بالتفكر فيتأمل ويتدبر فيعتبر ويتعظ فيهتدي ، ثم بعد ذلك إن فاضت عينه من بعد هذا الاعتبار وهذا التذكر فهنيئاً له ((رجل ذكر الله خالياً ففاضت عينه)) ".

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم–من طريق ابن وهب –في قوله :{وفِي أَنْفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُونَ}، وقرأ قول الله –تبارك وتعالى:–{ ومِن آياتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرابٍ ثُمَّ إذا أنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } [الروم: ٢٠]، قال :وفينا آيات كثيرة؛ هذا السمع والبصر واللسان والقلب، لا يدري أحدٌ ما هو أسود أو أحمر، وهذا الكلام الذي يتلجلج به، وهذا القلب أيُّ شيء هو، إنما هو بِضْعَةٌ في جوفه، يجعل الله فيه العقل، أفيدري أحد ما ذاك العقل، وما صفته، وكيف هو؟

قوله تعالى : { وفي السَّماء رِزْقُكم } قرأ أُبيُّ بن كعب ، وحميد ، وأبو حصين الأسدي : «أرْزاقُكم» براءٍ ساكنة وبألف بين الزاي والقاف . وقرأ ابن مسعود ، والضحاك ، وأبو نهيك : «رازِقُكم» بفتح الراء وكسر الزّاي وبألف بينهما . وعن ابن محيصن كهاتين القراءتين . وفيه قولان .

أحدهما : أنه المطر (الذي هو سبب الأرزاق)، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وليث عن مجاهد ، وهو قول الجمهور . "وهذا تفسير للعام ببعض أفراده، لماذا؟ لأن رزق مفرد مضاف وهو من صيغ العموم، جميع الرزق في السماء "

والثاني : الجنة ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

كما قال تعالى{ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ }

وقد ذكر ابنُ القيم (٣/ ٤٢) القول بأن الرزق المطر كما في آثار السلف، وزاد قولين آخرين، فقال: «أما الرزق ففُسّر بالمطر، وفُسّر بالجنة، وفُسّر برزق الدنيا والآخرة». ثم علّق قائلًا: «ولا ريب أن المطر من الرحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة، فرِزْق الدارين في السماء التي هي في العلو.«

وقال مجاهد أيضاً وواصل الأحدب : أراد القضاء والقدر ، أي الرزق عند الله يأتي به كيف شاء ،يعني تقدير الارزاق والمعايش يجري في السماء يدل عليه قوله تعالى { يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلَى الأرْضِ }. وهذا اعم .

{ وَمَا تُوعَدُونَ } ، قال عطاء : من الثواب والعقاب.وقال مجاهد : من الخير والشر.وقال الضحاك : وما توعدون من الجنة والنار،

أي ما توعدون "من المآب والثواب والعقاب أي مكتوب ذلك في السماء" مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في اللوح المحفوظ، والأمر به من لدن الله -جل وعلا-، وهو في السماء، وإن كان الرزق المباشر بعد نزول الأمر به من السماء يكون في الأرض؛ ليسهل تناوله من قبل المخاطب.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢١/ ٥٢٣) -مستندًا إلى دلالة العموم- القول الأول، فقال: «لأنّ الله عمّ الخبر بقوله: {وما توعدون} عن كل ما وُعِدنا من خير أو شر، ولم يخصّص بذلك بعضًا دون بعض، فهو على عمومه كما عمّه الله.«

وقد ذكر ابنُ القيم (٣/ ٤٢ - ٤٣) هذه الأقوال، ثم علّق بقوله: «كون الجنة والخير في السماء فلا إشكال فيه، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين». ثم علّق بقوله: «فإذا نظرتَ إلى أسباب الخير والشر وأسباب دخول الجنة والنار وافتراق الناس وانقسامهم إلى شقيّ وسعيد وجدتَ ذلك كلّه بقضاء الله وقدره النازل مِن السماء، وذلك كلّه مُثبت في السماء في صحف الملائكة وفي اللوح المحفوظ قبل العمل وبعده، فالأمر كلّه من السماء. وقول من قال: من أمر الساعة؛ يكشف عن هذا المعنى، فإنّ أمر الساعة يأتي من السماء، وهو الموعود بها، فالجنة والنار الغاية التي لأجلها قامت الساعة». ثم علّق قائلًا: «فصح كل ما قال السلف في ذلك.«

وقال ابنُ عطية (٨/ ٦٩): «و {توعدون} يحتمل أن يكون مِن الوعد، ويحتمل أن يكون من الوعيد، والكلّ في السماء.« ثم أقسم بنفسه فقال: { فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ } قال مقاتل بن سليمان :{ فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ} يعني: لكائن، يعني :أمر الساعة{مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} يعني: تتكلمون ، وعن عبد الملك ابن جُرَيْج، في قوله { فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقّ}، قال :لكلّ شيء ذَكَرَه في هذه السورة .

{ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ } يعني هذا لا يماري فيه أحد، وهذا في الأصل أن الإنسان ناطق لكن قد يوجد أخرس وهذا قليل وانما العبرة بالغالب فشبه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي، كما تقول: إنه لحق كما أنت ههنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم، والمعنى: إنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة.

قال الشيخ عبدالكريم الخضير " أمر نبيه أن يقسم به على البعث في ثلاثة مواضع: في يونس: { وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي} [(٥٣) سورة يونس] وفي سبأ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي} [(٣) سورة سبأ] وفي التغابن: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي} [(٧) سورة التغابن] ثلاثة مواضع أمر الله نبيه أن يقسم، والقسم معروف شأنه وحكمه، والنبي -عليه الصلاة والسلام- كثيراً ما يقسم على الأمور المهمة ويحلف من غير استحلاف، مما يدل على جوازه في الأمور المهمة، أما في غيرها فجاء النهي عنه {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ} [(٢٢٤) سورة البقرة] لا تجعل القسم على يمينك في الأشياء التافهة التي لا قيمة لها.

{فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ } [(٢٣) سورة الذاريات] أي رزقكم، وما توعدون، وعود الضمير على جميع ما تقدم من الرزق وما يوعدون أولى؛ لأنه متعقب لأكثر من جملة، وما يتعقب جمل سواءً كان في مثل هذا الموضع القسم، أو الاستثناء، أو

الوصف يعني عوده إلى جميع ما تقدم إن أمكن هو الأصل، وإذا منع منه مانع حمل على البعض دون ما منع منه مانع"(التعليق على الجلالين لعبد الكريم الخضير).

بعض المفسرين يقول "ما " زائدة والبعض يقول صلة حتى لا يقال ان في القرآن شيء زائد فيتأدب بعضهم فيقول: (ما) صلة، يعني تشبيهاً لها بصلة الموصول التي لا محل لها من الإعراب. وانما يجيء بها لتقوية الكلام.

وقوله { مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ } [الذاريات:٢٣] "بفتح اللام مركبة مع (ما) " مركبة مع (ما) والتركيب المزجي يقتضي فتح الجزأين، مثل أحد عشر، بعلبك مثلاً ثلاث عشرة، ثلاثة عشر أربعة عشر تركيب مزجي هذا، فإذا ركبت مع (ما) فتحت، صارت مثلما، مثل كلما "المعنى مثل نطقكم في حقيقته، أي معلوميته عندكم ضرورة صدوره عنكم" يعني مثل ما ذكرنا، إن الإنسان التي ليست به علة ولا آفة وينطق نطقاً واضحاً مفهوماً معروفاً على ما تعارف عليه الناس في كلامهم لو قال الإنسان: والله فلان أبكم، قيل: مجنون، هذا القائل مجنون، لا يعي ما يقول، والتشبيه بالنطق، التشبيه بالنطق ما قال: مثل ما أنكم تسمعون؛ لأن السمع أمر خفي، السمع أمر خفي، وأما النطق فهو ظاهر، النطق ظاهر يسمع ينتقل من قائله إلى غيره، أما السمع فهو آلة تلقي، يعني يمكن يجلس شخص بجوارك لمدة ساعة لكنك لا تخاطبه فلا تدري هل هو يسمع أو لا يسمع؟ وقد تخاطبه ولا يرد عليك لأمر من الأمور ولا تجزم بأنه لا يسمع، بينما الذي يتكلم لا يتردد أحد في أنه يتكلم.

قوله عز وجل: { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ(١) إِبْرَاهِيمَ }

تكررت قصة إبراهيم –عليه السلام– مع ضيفه من الملائكة في مواضع من القرآن، ومن أبسطها ما جاء في سورة هود.

قال ابن القيم في الرسالة التبوكية (قال الله تعالى هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام وليس المراد بها حقيقة

الاستفهام ولهذا قال بعض الناس : ان هل في مثل هذا الموضع بمعنى قد التي تقتضي التحقيق ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنى بديع فإن المتكلم اذا اراد ان يخبر المخاطب بامر عجيب ينبغي الاعتناء به واحضار الذهن له صدر له الكلام باداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به فتارة يصدره بالا وتارة يصدره بهل فقول هل علمت ما كان من كيت وكيت اما مذكرا به واما واعظا له مخوفا واما منبها على عظمه ما يخبر به واما مقررا له

فقوله تعالى هل اتاك حديث موسى و هل اتاك نبا الخصم وهل اتاك حديث الغاشية و هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته.

ففيه أمر آخر. وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة فانه من الغيب الذي لا تعمله أنت ولا قومك فهل أتاك من غير أعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟

---

١ – ضيف مصدر يصدق على الواحد والاثنين والجمع، وعلى المذكر والمؤنث بلفظ واحد، مثل طفل {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [(٦٧) سورة غافر] ما قال: أطفال

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا. وقوله ضيف إبراهيم المكرمين([1]) متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في المكرمين قولين.

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: انهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه، إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم

والملائكة تصورت في صورة رجال، وتصور الملائكة في صورة رجال وارد في جملة آيات وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجوز أن تأتي الملائكة في صورة البشر، قال الله سبحانه وتعالى في شأن مريم: { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } [مريم:١٧]، وكذلك هنا الملائكة تشكلت في صورة بشر، ولما ذهبوا إلى لوط أيضاً تشكلوا له في صورة بشر.

وقال عمر رضي الله عنه: (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد) ، وفي آخر الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

وكذلك كان جبريل يتمثل للرسول صلى الله عليه وسلم بصورة دحية الكلبي ، وكذلك الثلاثة نفر: الأقرع والأبرص والأعمى، الذين ابتلاهم الله سبحانه وتعالى، فتمثل لهم الملك في صورة رجل ليبتليهم، وقد تمثلت بعض الملائكة في صورة بشر في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصل تشكل الملائكة في صورة البشر وارد وجائز كما في هذه النصوص.

. وقوله: {فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ([2])}([1]) متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلاماً. وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية

---

[1] – المراد بالاستفهام في مثل هذا التفخيم والتهويل وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين جاؤا ليبشروه بالولد وبإهلاك قوم لوط قيل: سماهم مكرمين لأن إبراهيم –عليه والسلام– من أشرف الخلق، بل هو أفضلهم بعد محمد –عليه الصلاة والسلام–، هو الذي تولى خدمتهم بنفسه، وهم أيضاً ممن أكرمه الله –جل وعلا– بأن جعلهم من الملائكة، فهم مكرمون من جهتين، من جهة أن الله –جل وعلا– كرمهم فجعلهم من الملائكة الذين قال الله تعالى في وصفهم.{ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ }، وأيضاً خدمهم النبي –عليه الصلاة والسلام– إبراهيم بنفسه، ما وكل خدمتهم إلى أحد، وهكذا ينبغي أن يفعل بالضيف، ينبغي أن يكرم: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)).

{ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ} " {إِذْ} ظرف لحديث ضيف"، واو الجماعة في دخلوا يعود إلى ضيف، وضيف مفرد، ما قال: إذ دخل، قال: المكرمين ما قال: المكرم، وضيف مصدر يصدق على الواحد والاثنين والجمع، وعلى المذكر والمؤنث بلفظ واحد، مثل طفل {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [(٦٧) سورة غافر] ما قال: أطفال .

[2] – قال سفيان الثوري :في قراءة عبد الله] بن مسعود { قالُواْ سِلْمًا قالَ سِلْمٌ}.

تقديره سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم والفعلية تقتضي التجدد والحدوث فكانت تحية إبراهيم أكمل واحسن. ثم قال {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}(٢) وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح.

إحداهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: انتم قوم منكرون، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحدا بما يكرهه بل يقول: " وما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا ".

قال ابن جرير " واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة: {قال سلام} بالألف بمعنى: قال إبراهيم لهم: سلام عليكم. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: «سِلْمٌ» بغير ألف، بمعنى قال: أنتم سِلم.«

ووجّه ابنُ عطية (٨/ ٧٣) هذه القراءة، فقال: «وقرأ ابن وثّاب، والنخعي، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وابن جبير: «قالَ سِلْمٌ» بكسر السين وسكون اللام. والمعنى: نحن سِلم وأنتم سِلم.«"

١ – قال الشيخ عبدالكريم الخضير " قال في سورة هود {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ} [(٥١ – ٥٢) سورة الحجر] هل يمكن أن يقول قائل: إن إبراهيم –عليه السلام– ما رد؟ إبراهيم –عليه السلام– رد، والواقعة واحدة، ولا يلزم النقل في كل واقعة، ما دام نقل في موضع واحد لا يلزم النقل في كل موضع، وفي كل حادثة، النبي –عليه الصلاة والسلام– لما سلمت عليه أم هانئ، فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال: ((مرحباً بأم هانئ)) سلمت عليه فاطمة قال: ((مرحباً بابنتي)) هل نقول: إن النبي –عليه الصلاة والسلام– ما قال: وعليكم السلام ما رد؟ أو نقول، لا يلزم نقل الرد في كل مناسبة، كما عندنا هنا، الرد مقطوع به، لكن كونه لا ينقل في موضع لا يعني أنه لم يرد، يعني في حديث الثلاثة الذين دخلوا وسلموا ما رد، النبي –عليه الصلاة والسلام– ما نقل أنه رد، هل نقول: إنه ما رد؟ وهل في مندوحة ألا نرد؟ لا، ما في مندوحة عن الرد، يعني إذا شككت في الشخص يعني الأمر بيدك، يعني إذا غلب على ظنك أنه ليس ممن يسلم عليه شرعاً الأمر بيدك، لكن إذا سلم لا بد أن ترد، ولو غلب على ظنك أنه ممن لا يستحق الرد، يعني رد قال: السلام عليكم وأنت ما تدري هو مسلم وإلا كافر؟ الكلام إذا غلب على ظنك أنه مسلم تقول: وعليكم السلام، إذا غلب على ظنك أنه كافر ما ترد عليه بنفس التحية تقول: وعليكم، لكن لا بد من الرد، {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ} [(٩٤) سورة النساء] المقصود أن الرد لا بد منه، وهنا نقول: إن الرسول – عليه الصلاة والسلام– رد على أم هانئ، ورد على فاطمة، ورد على الثلاثة، لكن ما يلزم نقله، إذا ثبت هذا بنص صحيح ففي بقية المواضع لا تلزم، وإن كان بعض أهل العلم يقول: إن مرحباً تكفي في الرد، بعضهم يقول: إذا قلت: مرحباً خلاص يكفي، ما تقول: وعليكم، ما يلزم تقول: وعليكم السلام." ((التعليق على الجلالين).

٢ – بالنسبة لسؤال الشخص للداخلين عليه –من أنتم؟ ومن أي البلاد– له أدلته في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما في حديث وفد عبد القيس لما جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: (من القوم أو من الوفد؟ قالوا: وفد عبد القيس يا رسول الله، قال: مرحباً بالقوم أو بالوفد)، (ولما جاءت أم هانئ تسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: من هذه؟ قالت: أم هانئ يا رسول الله، قال: مرحباً بأم هانئ) ، ولما ذهبت زينب امرأة عبد الله بن مسعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستفتيه في بعض المسائل وأرسلت بلالاً وقالت له: قل له: إن ابن مسعود يزعم أنه أحق من تصدقت عليه، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: (من هذه؟ قال بلال : زينب ، قال: أي الزيانب هي؟).

إذاً: يجوز السؤال عن الشخص القادم أو عن الشخص المستخبر، ولا مطعن في هذا ولا لوم على السائل .

الثاني: قوله {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}([1]) فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر (نكرهم) ولا ريب أن قوله (منكرون) ألطف من أن يقول أنكرتكم.

وقوله {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ([2]) فَجَاءَ بِعِجْلٍ([3]) سَمِينٍ([1]) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} متضمن وجوها من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف. منها قوله: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ} والروغان الذهاب بسرعة واختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف،

---

[1] – قال عبد الله بن عباس} :إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلامًا قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ{، قال في نفسه :هؤلاء قوم لا نعرفهم

[2] – المراد بالأهل هنا: الزوجة، ومنه: قوله تعالى: { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } [آل عمران:١٢١]، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج من عند عائشة .

ومنه: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ والله ما علمت من أهلي إلا خيراً)، يريد عائشة وقد يطلق أحياناً على ما هو أعم من الزوجة؛ كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى بـ الحسن و الحسين و فاطمة و علي ووضع عليهم كساءً وقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)، فالأهل: قد تطلق على الزوجة، وقد تطلق الأهل: على الأبناء والأقارب، وقد تطلق على ما هو أعم من ذلك.

{ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب:٣٣]، المعني بالأهل هنا: أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام وأهل بيته صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: { فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } [الذاريات:٢٦]، أما قوله: (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ) أنه أتى بالطعام من عند الأهل والزوجة المساعدة في ضيافة الضيف، وقد قال العلماء في معنى قوله تعالى: { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ } [هود:٧١]، أي: قائمة على خدمة الأضياف، وكان هذا حال النسوة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كن يخدمن الأضياف فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ دَعَا أَبُو أُسَيْدٍ السَّاعِدِيُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُرْسِهِ وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ يَوْمَئِذٍ خَادِمَهُمْ وَهِيَ الْعَرُوسُ قَالَ سَهْلٌ تَدْرُونَ مَا سَقَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْقَعَتْ لَهُ تَمَرَاتٍ مِنْ اللَّيْلِ فَلَمَّا أَكَلَ سَقَتْهُ إِيَّاهُ." رواه البخاري ومسلم.

وكذلك أم سليم كانت تضيف أضياف أبي طلحة ، لما ذهب إليها الأضياف الذين أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك امرأة جابر كانت تضيف أضياف زوجها، فأخذ من هذه النصوص مع قوله تعالى: { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ } [هود:٧١]، أي: قائمة بخدمة الأضياف، أنه يستحب للزوجة أن تعين زوجها على إكرام أضيافه.

[3] – كثير من أهل العلم يقولون: إن المراد بالعجل هنا من البقر، إن كان كذلك فهو مخالف لما جاء في الحديث الذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن البقر وفيه: (لحومها داء وألبانها دواء وشفاء)، وقد روي عن رسول الله حديث بهذا اللفظ في شأن البقر : (لحومها داء وألبانها دواء وشفاء)، وهذا الحديث ضعيف الإسناد، ولبعض فقراته شواهد ألا وهي: (ألبانها دواء وشفاء) أما لفظة لحومها داء فإسنادها تالف ضعيف جداً، إضافة إلى ذلك فمعناه أيضاً باطل منكر.

فإن الله سبحانه وتعالى أنزل لنا من الأنعام ثمانية أزواج –أي: حلالاً طيبة لنا– وفصلت هذه الثمانية أزواج بقوله تعالى: { مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ } [الأنعام:١٤٣]، وبقوله تعالى: { وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ } [الأنعام:١٤٤]، ومن البقر –أي: الثور والبقرة– فإذا كان الله سبحانه قد أنزلها لنا حلالاً مع ما أنزل، فالله سبحانه وتعالى يحل لنا الطيبات ويحرم علينا الخبائث، و ثبت كذلك في الصحيح: (أن النبي صلى الله عليه وسلم ضحى عن نسائه بالبقر)، وثبت أيضاً في حديث الجمعة: (من راح في الساعة

الثانية يوم الجمعة فكأنما قرب بقرة) ففي كل هذه النصوص ما يدل على تضعيف معنى: (لحومها داء)، فضلاً عن ذلك فلا شاهد لهذه الفقرة من الحديث فإسنادها تالف ساقط.(مصطفى العدوي).

[1] – أما مسألة التكلف في إكرام الضيف، هل هي مشروعة أو غير مشروعة؟ فقد ورد قول الله تعالى: { فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } [الذاريات:٢٦]، وكذلك فعل أبو التيهان الأنصاري لما ذهب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبو بكر و عمر في ظهيرة يوم من الأيام، قام إلى شاة ليذبحها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إياك والحلوب) لكنه أقره على ذبح الشاة، وقد ورد في الباب أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (نهينا عن التكلف للضيف)، وهو بهذا اللفظ منازع في صحته، وقد حكم بعض العلماء على هذا الحديث بالضعف وهو الذي تستريح إليه النفس الآن، أما النصوص الثابتة فعمومها يحث على إكرام الضيف.

أما حديث: (نهينا عن التكلف للضيف)، على فرض ثبوته فهو منزل على معنىً معين وهو ما إذا كنت ستستدين ديناً كبيراً ترهق عن سداده فلا تفعل حينئذ، فـ { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة:٢٨٦] و { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } [الطلاق:٧]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد ثبت أن سلمان رضي الله عنه قال لـ أبي الدرداء : (إن لزورك عليك حقاً –أي: إن لضيفك عليك حقاً، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق سلمان).

يقول الله سبحانه: { فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } [الذاريات:٢٦]، وفي الآية الأخرى: { جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } [هود:٦٩]، والحنيذ: هو المشوي، فأخذ العلماء منه أدباً يتعلق بالضيافة: وهو أن على أهل البيت أن يتقنوا الطبخ الذي يقدمونه للضيف، فلا تأت المرأة –مثلاً– بلحم نيئ –غير ناضج– تقدمه للضيف، حتى يأكل قطعة أو لا يكاد يأكل ويترك لها الباقي، فتنضجه هي بعد أن ينصرف فإبراهيم صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك، بل جاء بعجل حنيذ وهو العجل الذي شوي شياً وأنضج إنضاجاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

في الآية أيضاً: أن الضيف يكرم بأفضل ما عندك (بشرط ان لا يكون ذلك على سبيل المباهاة والتفاخر)، لأن إبراهيم صلى الله عليه وسلم جاء بعجل سمين، فلم يأت بعجل هزيل ولا بعجل نحيف، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حاثاً على إكرام الضيف: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الضيافة ثلاثة أيام جائزته يوم وليلة)، أي: يبالغ في إكرام الضيف في اليوم الأول والليلة الأولى ويتحفه بما يستطيع من إتحاف، أما سائر الأيام فكسائر طعامك وشرابك.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أيما رجل نزل بقوم فلم يقروه فحق له أن يأخذ منهم بقدر قراه) أي: بقدر ضيافته، ولا يخفى عليكم أن خليل الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم أوصى ولده إسماعيل أن يغير عتبة بابه، –يطلق امرأته–، ومن أسباب هذا التغيير، عدم احتفائها بالأضياف وعدم إكرامهم للأضياف، وقد ورد عن الخليل صلى الله عليه وسلم: أنه أول من أضاف الأضياف، وبالغ في إكرامهم وتأسيس أصول ضيافتهم، وهذا حفيده يوسف صلى الله عليه وسلم يقول لإخوته: { أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ } [يوسف:٥٩]، أي: وأنا خير من أنزل الأضياف منازلهم وخير من أكرم الأضياف.

وها هو لوط عليه السلام يقف مغتماً مهتماً لما سيصيب الأضياف من مكروه، بل ويفديهم ببناته ويقول لقومه: { هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } [الحجر:٧١] ويقول أيضاً: { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } [هود:٧٨]، وها هو النبي صلى الله عليه وسلم، يسأله سائل فيقول: (يا رسول الله!! إنا ننزل بأقوام فلا يقدمون لنا ما ينبغي للضيف، فقال: إذا نزلتم بقوم فلم يقدموا لكم ما ينبغي للضيف فخذوا منهم بقدر قراكم)، أي: بقدر ضيافتكم، أو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين. وفي قوله تعالى: {إِلَى أَهْلِهِ} مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

وقوله: {فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: انه جاءهم بحيوان تام لم ياتهم ببعضه. ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: انه سمين ليس بهمزول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره. وقوله {إليهم} متضمن المدح وآداباً أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله {أَلا تَأْكُلُونَ} فيه مدح وآداب أخر، فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: {ألا تأكلون} وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول:: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا.

وقوله: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}([1]) لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك قالوا: {لا تَخَفْ([2]) وَبَشَّرُوهُ([1]) بِغُلامٍ عَلِيمٍ} وهذا الغلام

بل إن من العلماء من وضع حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) في كتاب المظالم اعتقاداً، إلى أن الشخص الذي لا يكرم ضيفه قد يكون ظالماً، لأنه بخس الضيف حقه.

(مستفاد من الشيخ مصطفى العدوي)

[1] –قال تعالى { رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود:٧٠]، ففيه إثبات الخوف الجبلي، والخوف الجبلي يرد حتى على الفضلاء وأهل الصلاح، فالخليل إبراهيم عليه السلام أوجس خيفة في نفسه من هؤلاء الأضياف، وفي موسى عليه السلام يقول الله: { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } [طه:٦٧]، وكذلك قال موسى: { فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ } [الشعراء:٢١]، وكذلك قال الله سبحانه وتعالى: { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ } [الأنفال:٢٦].

فالخوف الجبلي الذي يتوارد على أبناء آدم لا يخدش في دينهم وتقواهم، وإن كان ينبغي لهم أن يقاوموا أنفسهم في هذا الخوف لعموم قوله تعالى: { فلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٧٥].

وهذا يدل على ان الانبياء لا يعلمون الغيب حيث ذبح عجله وقربه اليهم وخاف منهم ولم كان يعلم انهم ملائكة لم يفعل ذلك.فكيف بمن سواهم من البشر .

[2] – على الضيف أيضاً: أن يطمئن صاحب البيت ولا يدخل عليه الرعب والإزعاج بل عليه أن يطمئنه ويذهب عنه الروع.

وان على الانسان ان يدفع الانسان عن نفسه الريبة كما جاء عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ وَعِنْدَهُ أَزْوَاجُهُ فَرُحْنَ فَقَالَ لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ لَا تَعْجَلِي حَتَّى أَنْصَرِفَ مَعَكِ وَكَانَ بَيْتُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا فَلَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَنَظَرَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَجَازَا وَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَالَيَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ قَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا.متفق عليه.

فعلى الانسان اذا نظر اليه الناس بريبة ان يبين لهم ما يدفع عن نفسه الريبة كما في قصت الناقة في الحديبية اذ قال الناس " خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ " رواه البخاري.

[1] – الغلام العليم هنا هو: إسحاق صلى الله عليه وسلم، كما في الآية الأخرى: { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود: ٧١]، فهي صريحة في أن الغلام العليم هو إسحاق صلى الله عليه وسلم، والعليم: ذو العلم الكثير الغزير الوفير، وقد كان نبي الله إسحاق صلى الله عليه وسلم عالماً.

{فضحكت } يحمل على المعنى المعروف المتبار وهو الضحك المعروف فضحكت فرحا بنصر الله للوط وهلاك المجرمين وذلك اولى من حمله على غيره كحمله على الحيض.

قال تعالى:{ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ }.

الغلام يطلق على الصغير تأسيساً، ويطلق على الكبير مجازاً

قال ابن القيم في تحفة المولود "في استحباب بشارة من ولد له ولد وتهنئته به:

قال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام:

"لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشري ..." وقال سبحانه " فبشرناه بغلام حليم " وقال سبحانه " وبشروه بغلام عليم " وقال سبحانه " قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم "

وقال تعالى: " يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا" وقال سبحانه: " فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا"

– ولما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه، استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه. فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته.

– ولما أنزل الله توبة كعب بن مالك تسابق الصحابة لبشارته فكان أسبقهم من ارتقي مرتفعاً فبشره وجاء كعب إلى المسجد فقام إليه أحد الصحابة والتزمه مهنئاً فكان كعب لا ينساها له.

قال إبن القيم رحمه الله:" ولا ينبغي للرجل أن يهنئ بالإبن ولا يهنئ بالبنت، فان الجاهلية كانوا يهنئون بالإبن فقط .

– وكان الحسن البصري يقول لمن رزق مولوداً ولداً أو بنتاً: بورك لك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ رشده، ورزقت بره."

اسحق لا إسماعيل، لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم، لا يولد لمثلي، فأنى لي بالولد ؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده. وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا(١) وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: {عَجُوزٌ(٢) عَقِيمٌ(٣)} فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.(هكذا قال اين القيم قال تعالى في سورة هود { قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) } فاطالت هنا الكلام والقصة واحدة والسبب ان الكلام منقول بمعناه عن لغة ليست عربية فهذا وان كان مما يستملح الا انه لا يستقيم (مستفاد من الشيخ خالد السبت))

---

١ – عن مجاهد بن جبر –من طريق ابن أبي نجيح -في قوله} :فَصَكَّتْ وجْهَها{، قال :ضربت بيدها على جبهتها، وقالت :يا ويلتاه.
عن إسماعيل السُّدِّيّ –من طريق أسباط -قال :لَمّا بشَّر جبريل سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ضَربتْ جبهتها عجبًا، فذلك قوله} :فَصَكَّتْ وجْهَها.
وقال ابن دريد " وفي التنزيل: " فَصَكَّتْ وَجْهَها " ، أي ضربت وجهها بيدها. "(جمهرة اللغة).
" قال الزجاج الصَّرَّة أَشدُّ الصياح تكون في الطائر والإنسان وغيرهما "(اللسان).

٢ – يقال للرجل عَجُوز وللمرأَة عَجُوز ويقال اتَّقِي الله في شَبِيبَتِكِ وعُجْزِك أَي بعدما تصيرين عَجُوزاً وفي الحديث إن الجنة لا يدخلها العُجُز قال ابن الأَثير العُجُز جمع عَجُوز وعَجُوزة وهي المرأَة الكبيرة المسنَّة .(اللسان).
وفي الآية دليل على إطلاق لفظ عجوز على المرأة الكبيرة، أما قول من يقول: رجل عجوز، وإن كانت اللغة تقتضيه من بعض الوجوه لكنها ليست بالأفصح، إنما الأفصح في شأن الرجل أن يقال: شيخ والمرأة عجوز، كما قالت سارة عليها السلام: { يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود:٧٢–٧٣].

٣ – عن الضَّحّاك بن مُزاحِم –من طريق مُشاش -أنّه سُئل عن} :عَجُوزٌ عَقِيم{، وعن} :الرِّيحَ العَقِيم] {الذاريات: ٤١[، وعن} :عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ] {الحج: ٥٥[، فقال :العجوز العقيم: التي لا ولد لها، وأما الريح العقيم :فالتي لا بركة فيها ولا منفعة ولا تُلقِح، وأما عذاب يوم عقيم :فيوم لا ليلة له.
وعن السُّدِّيّ قال :لما قال لها جبريل: إنّك ستلدين. فضَربتْ جبهتها، فذلك قوله} :فَصَكَّتْ وجْهَها وقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ{، كنتُ شابّة عقيم، فكيف وأنا اليوم عجوز؟! فضَحكتْ تَعَجُّبًا، وقالت :أنا ألد؟! كيف يكون هذا وأنا عجوز وهذا بَعْلي شيخًا؟!

وقوله تعالى {قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ} متضمن لاثبات صفة القول له. وقوله {إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة و لوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب.

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثا وسُدى وباطلاً فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب

والعقاب، ولهذا كان اصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك. وانه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفراً كبيراً لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له، الصدر ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل.

والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته. واختصت هذه القصة بذكر هذين الإسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة." الرسالة التبوكية .

وقوله تعالى{قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ} [(٣٠) سورة الذاريات] في صنعه {الْعَلِيمُ}([1]) بخلقه" يجعل الإنسان لا ييأس من أي علة تصيبه، العقيم لا ييأس يدعو {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا} [(٨٩) سورة الأنبياء] والمريض بأي مرض ولو قرر الأطباء أنه لا علاج

---

[1] – فلا معنى للجدل ولا معنى للمراجعات، فإن الجدل والمراجعات إذا كانت تجزي فلتجادل ولتراجع، لكن إذا كان هناك أمر قد قضاه الله ونفد فلا معنى للجدل ولا معنى للمراجعات، ويؤخذ من هذه الآية: فقه الخطاب والتحاور مع الناس، فإذا كان كلامك مع الناس له جدوى أو إذا كان إلحاحك سيأتي بفائدة فلتلح ولتجادل، لكن إذا كان الجدل والكلام ليس من ورائه فائدة، فحينئذ أمسك عليك لسانك، وبهذا جاءت نصوص الكتاب العزيز.

قال الله في شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى } [هود:٧٤] بالغلام { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:٧٤–٧٥]، والحليم: هو الذي يتأنى ولا يبادر في إنزال العقوبات على الناس، فإبراهيم لما

له لا ييأس ((ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله)) وإن كان بعض الأطباء أحياناً يجرءون ويقولون: هذا لا علاج له، فتيئيس الناس وتقنيطهم من هذا الأمر لا شك أنه غير وارد، مع أن النص بخلافه، وبالمقابل يذكر المرض لاقربائه الادنون من اجل ان يأمروه بالتوبة والتصدق ان كان عنده ما يتصدق به.

قال إبراهيم -عليه السلام-: {فَمَا خَطْبُكُمْ} [(٣١) سورة الذاريات](١) يعني ما شأنكم {أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ}؟ يعني ما الأمر الذي جئتم من أجله؟ أنتم أناس لا نعرفكم وقدمنا الطعام ولا أكلتموه؟ ما شأنكم؟ ماذا تريدون؟ {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ} [(٣٢) سورة الذاريات] إلى قوم مجرمين كافرين، يريد قوم لوط، يعني ومع الكفر الجريمة الشنعاء الفاحشة العظمى اللواط، وذكر القرطبي في تفسير سورة هود أن الله -جل وعلا- جرت عادته وسنته الإلهية أنه لا يؤاخذ بالشرك فقط، لا بد أن يكون هناك معصية يختصون بها، وتشاع بينهم ولا ينكرونها فيما بينهم، ولذلك تجد أن الذي يركز عليه في قصة قوم لوط هي الفاحشة، وقوم شعيب التطفيف، وقوم كذا عندهم كذا، وقوم كذا عندهم معاصي يتواطئون عليها، ويتداولونها بينهم ولا ينكرها بعضهم على بعض، فبها يستحقون تعجيل العقوبة، أما العذاب الأمدي الأبدي السرمدي هذا من أجل الشرك، معروف أن المشرك خالد مخلد في النار، لكن لا تعجل لهم العقوبة بسببه، إنما يعجل لهم العقوبة في أمر يختصون به من المعاصي الشنيعة من الكبار يتداولونها بينهم ولا ينكرها بعضهم على بعض، وإذا عمت الفاحشة استحقوا تعجيل العذاب، فنسأل الله تعالى السلامة والعافية.

{لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ} [(٣٣) سورة الذاريات] من طين مطبوخ بالنار، الطين معروف أنه لين، وإذا ضرب الإنسان قد لا يتأثر به مثل ما يتأثر في حالة ما إذا ضرب بشيء صلب، وهذا طين مطبوخ بالنار، نسأل الله العافية

أخبرته الملائكة أنهم متجهون إلى المؤتفكات -مدائن قوم لوط- لتدميرها، بدأ يجادل عن قوم لوط ويطلب المهلة لهم، كما قال تعالى: { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } [هود:٧٤-٧٦] أعرض عن هذا الجدل، { إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [هود:٧٦]، فلا معنى للمناقشة والجدل، فليقف الجدل ولتقف المناقشات التي ليس وراءها كبير طائل وكبير جدوى، وكذلك قال الملك لمريم عليها السلام لما قالت: { أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا } [مريم:٢٠] قال الملك: { قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا } [مريم:٢١]، فلا معنى للجدل بعد أن قضى الله سبحانه وتعالى الأمر، وكذلك قال ربنا سبحانه وتعالى لزكريا صلى الله عليه وسلم: { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } [مريم:٩]، فلا معنى للجدل ولا للكلام إذا لم يكن من وراء الجدل كبير فائدة ولا كبير طائل.(العدوي)

١ - الخَطْبُ الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ صَغُر أَو عَظُم وقيل هو سَبَبُ الأَمْر يقال ما خَطْبُك ؟ أَي ما أَمرُكَ ؟ وتقول هذا خَطْبٌ جليلٌ وخَطْبٌ يَسير والخَطْبُ الأمر الذي تَقَع فيه المخاطَبة والشأْنُ والحالُ ومنه قولهم جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن وفي حديث عمر وقد أَفْطَروا في يوم غيمٍ من رمضان فقال الخَطْبُ يَسيرٌ وفي التنزيل العزيز قال فما خَطْبُكُم أَيُّها المُرسْلون ؟ وجمعه خُطُوبٌ.(اللسان).

(والاية بين قوله تعالى في سورة هود { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢)}ان المقصود بالسجيل الحجارة من الطين) {مُسَوَّمَةً} [(٣٤) سورة الذاريات] معلمة، مسومة معلمة، يعني عليها علامات، كل حجر عليه علامة أنه لفلان، عليه علامة أنه أرسل على فلان، حتى قال بعضهم: إنه مكتوب عليه اسم من أرسل إليه معلمة عليها اسم من يرمى به عليها اسم من يرمى به عند ربك {مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ} [(٣٤) سورة الذاريات] ظرف لها، يعني وضعت عليها العلامات وهذه السمات عند الله –جل وعلا–، الذي عاقبهم بها، ظرف لها {لِلْمُسْرِفِينَ} [(٣٤) سورة الذاريات] بإتيانهم الذكور مع كفرهم، مع كفرهم بالله –جل وعلا–، وهذه الفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.

وعن عبد الله بن عباس في قوله :{مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ}، قال :المسوّمة: الحجارة المختومة؛ يكون الحَجر أبيض فيه نقطة سوداء، أو يكون الحَجر أسود فيه نقطة بيضاء، فذلك تسويمها، {عِنْدَ رَبِّكَ} يا إبراهيم {للمُسرفين} يعني: للمُتعدِّين حدود الله، الكافرين به من قوم لوط

{فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا} [(٣٥) سورة الذاريات] أي في قرى قوم لوط {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} من أجل إهلاك الكافرين؛ لأنهم لو لم يخرجوا لهلكوا معهم؛ لأن العقوبات إذا نزلت عمت، عمت الصالح ومن يستحق ومن لا يستحق، ثم بعد ذلك يبعثون على نياتهم، لكن الله –جل وعلا– أنقذ لوطاً وابنتيه ومن آمن به على خلاف بين أهل العلم في العدد، لكن لوط وابنتيه أنقضهم الله –جل وعلا– فقال: {فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا} [(٣٥) سورة الذاريات] أي في قرى قوم لوط {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} من أجل، لأجل إهلاك الكافرين، {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} [(٣٦) سورة الذاريات] أخرجنا، يعني أرادنا إخراج من كان فيها من المؤمنين؛ لتنزل العقوبة على هؤلاء المجرمين {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} [(٣٦) سورة الذاريات] عن قتادة بن دعامة –من طريق سعيد –في قوله} :فَما وجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ المسْلِمِينَ{، قال :لو كان فيها أكثر من ذلك لنجّاهم الله؛ ليعلموا أنّ الإيمان عند الله محفوظ، لا ضَيعة على أهله

قال: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} [(٣٦) سورة الذاريات([1])] وهم لوط وابنتاه وصفا بالإيمان والإسلام، أي هم مصدقون بقلوبهم وهذا هو الإيمان عاملون بجوارحهم الطاعات، والتصديق لا يكون مساوٍ للإيمان من كل وجهة، يعني ليس

---

[1] –قال ابن القيم في الرسالة التبوكية " ثم قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو، إخراج نجاة من العذاب و لا ريب إن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرا وباطناً.

وقوله تعالى: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجيين، وقد اخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً وليست من المؤمنين الناجيين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمة ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

الإيمان هو التصديق من كل وجه، نعم حقيقة الإيمان اللغوية هي التصديق لكن حقيقته الشرعية زيد فيها، زيد فيها كما قرر ذلك شيخ الإسلام في كتابه الإيمان، وهكذا كل الحقائق اللغوية تقر في الشرع لكنها يزاد عليها قيود وضوابط {وَتَرَكْنَا فِيهَا} [(٣٧) سورة الذاريات] أي بعد إهلاك الكافرين، تركنا في هذه القرى بعد إهلاك الكافرين قوم لوط، الكفار المرتكبون للفاحشة المصرون عليها {آيَةً} [(٣٧) سورة الذاريات] علامة على إهلاكهم، علامة على إهلاكهم من وجود الأنقاض ووجود آثار هذا التعذيب فيه علامة معتبر مدكر لمن يمر بها، آية لكن لمن؟ كثير من الناس يمر على المواطن، مواطن العذاب لكنها لا تحرك فيه ساكناً، بل بعض الناس يذهبوا إليها من أجل النزهة، وقد جاء النهي عن دخول هذه الأماكن إلا باكين أو متباكين، إنما تدخل للاعتبار والادكار، وبعض الناس يتخذها أماكن للنزهة.

يقول: {وَتَرَكْنَا فِيهَا} [(٣٧) سورة الذاريات] بعد إهلاك الكافرين {آيَةً} أي علامة على إهلاكهم لمن؟ {لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [(٣٧) سورة الذاريات] فلا يفعلون مثل فعلهم،

ذكر ابن عطية (٨/ ٧٦) في معنى الآية احتمالين، فقال: «المعنى: وتركنا في القرية المذكورة، وهي سدوم أثرًا من العذاب باقيًا مؤرخًا لا يفنى ذكره فهو آية، أي علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة. ويحتمل أن يكون المعنى: وتركنا في أمرها. كما قال: {لقد كان في يوسف} [يوسف: ٧" .

، فعلى الإنسان أن يعترف ويعتبر ويدكر ويزدجر وينظر في مثل هذه الآيات؛ لأنه ليس المراد بهذا قوم لوط، وليس المراد بعاد ولا ثمود ولا الأمم المعذبة كلها، ولا المقصود فرعون في هذه القصص، ليس المقصود فيها فرعون، وليس المقصود قوم لوط، كما قال عمر –رضي الله عنه–: "مضى القوم، انتهوا، "مضى القوم ولم يرد به سوانا، من أجل إيش؟ {لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه بل هم المخرجون الناجون."

والإسلام والإيمان شيء واحد إذا افترقا، يعني إذا ذكر الإسلام يدخل فيه الإيمان، إذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام، لكن إذا اجتمعا في نص واحد فالإسلام يحمل على الأعمال الظاهرة، والإيمان يحمل على الأعمال الباطنة أعمال القلب. كما في حديث جبريل عليه السلام المتقدم ذكره.

وعن سفيان الثوري –من طريق أيوب بن سُويد –قال :الإسلام والإيمان سواء ثم قرأ{فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}.يعني نفس البيت وصف بالايمان والاسلام جميعا ويبينه كلام ابن القيم المتقدم .

وذكر ابن كثير (١٣/ ٢١٩) نحو ما جاء في قول الثوري، وعلّق فقال: «احتجّ بهذه الآية مَن ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرّق بين مسمّى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين، وعندنا أنّ كلّ مؤمن مسلم لا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.»

وبنحوه ابنُ تيمية (٦/ ١٠٤ – ١٠٥)، حيث نقل هذا عن الخطابي، وقال: «والذي اختاره الخطابي هو قول مَن فرَّق بينهما كأبي جعفر، وحمّاد بن زيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره، ولا علمتُ أحدًا من المتقدّمين خالف هؤلاء فجعل نفس الإسلام نفس الإيمان؛ ولهذا كان عامّة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء. كما ذكره الخطابي.»

[(٣٧) سورة الذاريات](١) ننظر في الأسباب التي من أجلها عذبوا فنجتنب هذه الأسباب، إذا كنا نخاف مثل هذا العذاب الأليم لا بد أن نعتبر، يعني ننظر في أحوال الأمم الماضية لماذا عذبوا؟ عذبوا من أجل كذا، إذاً ليش؟ لماذا ذكرت قصصهم في القرآن؟ {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ} [(١١١) سورة يوسف] {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} [(١١١) سورة يوسف] يعني ما أنزلت هذه القصص من أجل أن يتحدث بها في المجالس، مثل قصص ألف ليلة وليلة وعنترة بن شداد أو فلان وعلان، لا، هذا {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ} [(١١١) سورة يوسف] لا بد من اعتبار، لا بد من الادكار، يعني الآن نعيش أشياء، ونعيش مخالفات، ونعيش أمور، اشتهرت بين المسلمين من غير نكير، ألا نعتبر، ألا ندكر، يعني لو قرأنا في أسباب سقوط الأندلس مثلاً، في الجزء السادس من نفح الطيب، وطبقناها على واقع المسلمين في كثير من البلدان، السنن الإلهية لا تتغير ولا تتبدل، السنن الإلهية ليس لها تبديل ولا تغيير، وجدت الأسباب التي عذب بها أي قوم يعذب بها غيرهم، يعني لا يوجد أناس بينهم وبين الله -جل وعلا- صلة غير أن يحققوا ما خلقوا من أجله كما سيأتي {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [(٥٦) سورة الذاريات] {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [(٣٨) سورة محمد] فلا بد من النظر في أسباب هلاك الأمم، لماذا أهلكوا؟ فنجتنب هذه الأسباب، وكونه يكثر بعض المعاصي التي عذبت بها الأمم السابقة، يعني أين عقول الناس؟! يعني يوجد من يزاول هذه الفاحشة في بلدان المسلمين، وسجلات المحاكم فيها الشيء الكثير، ويطلع عليها من يطلع ممن له أمر أو نهي، ثم بعد ذلك لا يحرك ساكن، هذا معقول؟! يعني نستحق عقوبة بهذا، لا بد من الأخذ على أيديهم وأطرهم على الحق، لا بد من تنفيذ شرع الله فيهم، لا بد من قطع دابرهم؛ لئلا يقضى على الجميع، وقل مثل هذا إذا كثر الزنا، إذا كثرت السرقة، كثر الربا، وفشا الربا، هناك عقوبات مرتبة على هذه الفواحش، لكن المسألة إذا كانت خفية ما يطلع عليها أحد، ومسائل فردية ونادرة هذه لن يخلو منها مجتمع من المجتمعات، وليس ... العصمة يعني متصورة في أي مجتمع، فالمخالفات اليسيرة وقعت في عصر النبي -عليه الصلاة والسلام-، لكن الشأن في كون هذه الأمور تكثر تصير ظواهر، هذا الإشكال، ولا يوجد من ينكر هنا تستحق العقوبة، والسنن الإلهية لا تتغير ولا تتبدل".(تعليق الشيخ عبدالكريم الخضير على الجلالين)

قوله تعالى {وَفِي مُوسَى} أي: وفي قصة موسى عبرة وعظة كذلك للذين يخافون العذاب الأليم { إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [الذاريات:٣٨]، قال مقاتل بن سليمان:{وفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ} ، يعني :بحُجّةٍ بيّنةٍ واضحةٍ، وهي :اليد والعصا .

---

١ – قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "وقوله تعالى:{ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [الذاريات:٣٧] فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ويخشى عذاب الله تعالى، كما قال الله تعالى في موضع آخر: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: {سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى} [الأعلى:١٠]، فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة، وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ".

وكذلك سائر الآيات التي أمده الله بها. لكن إذا كان الله –جل وعلا– قد كتب عليه الشقاوة فلا ينفعه، فلا تفيد فيه المواعظ، ولا تفيد فيه المعجزات، ولا تفيد فيه الآيات

المعنى وجعلنا في قصة موسى آية" حينما تكبر فرعون وتجبر جاءه موسى بالآيات البينات فعتا وادعى الربوبية والألوهية فكان مصيره ومآله إلى أن أغرقه الله –جل وعلا– وجعل بدنه لمن خلفه آية، لكن آية لمن؟ للذين يخافون العذاب الأ لم، وإلا فكم من شخص يذهب إلى ديارهم وينظر العلامات والدلائل الواضحات من باب النزهة ويحصل هناك ما يحصل من المخالفات الشرعية ومن اللهو واللعب خلاف ما يطلب من المسلم الذي يخاف العذاب الأليم، لو أن هناك عقل فضلاً عن دين، تجد موضع أهلك فيه شخص عادي، يعني لو أنت في صباك رأيت منظراً شخص قتل في هذا المكان، شخص قتل أو دهس في هذا المكان، يعني تستصحب هذا المنظر إلى أن تموت، فكيف بأمة أهلكت وأمم أهلكت في هذا المكان ولا يحرك ساكناً؟! كأن القرآن أنزل لغيرنا أو أنزل لنتفكه بالحديث في أخبار الأمم السابقة، يعني كأننا نقرأ مع أن الإنسان إذا قرأ في كتب التواريخ كتب التواريخ يقرأ فيها طالب العلم ويديم النظر فيها من أجل الاعتبار والادكار؛ لأنها تشتمل على العبر والمواعظ والتواريخ على ما يقال: التاريخ يعيد نفسه، والأسباب قد تتعدد الأسباب، لكن المصير هو الهلاك لهذه الأمم المخالفة.

قال تعالى: { فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [الذاريات:٣٩]، والركن هنا المراد به: الجمع، عن عبد الله بن عباس –من طريق علي –في قوله:{فَتَوَلّى بِرُكْنِهِ}، قال :بقومه .

كما قال لوط صلى الله عليه وسلم: { قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [هود:٨٠]، قالوا الركن الشديد: هو القوة القبلية والعشيرة والجمع،

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم –من طريق ابن وهب– في قول الله –تبارك وتعالى :–{فَتَوَلّى بِرُكْنِهِ}، قال :بجُموعه التي معه .وقرأ :{قالَ لَوْ أنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أوْ آوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ}[هود: ٨٠]، قال :إلى قوةٍ من الناس؛ إلى رُكنٍ أجاهدكم به .قال :وفرعون وجنوده ومَن معه رُكنه .قال :وما كان مع لوط مؤمن واحد .قال :وعرض عليهم أن يُنكحهم بناته؛ رجاء أن يكون له منهم عَضُدٌ يُعينه، أو يدفع عنه .وقرأ :{هَؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أطْهَرُ لَكُم }[هود: ٧٨]، قال :يريد النكاح، فأَبَوا عليه. وقرأ قول الله –تبارك وتعالى :–{لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِن حَقٍّ وإنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ}. [هود: ٧٩] .أصل الرُّكن :الجانب والناحية التي يَعتَمِد عليها، ويَقْوى بها .وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة قال عليه الصلاة والسلام " يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ "وهو الله جل وعلا.

ومن أهل العلم من قال: إن الركن هنا المراد به: الإعراض بالوجه، قال مقاتل بن سليمان :{فَتَوَلّى بِرُكْنِهِ} يعني: فأعرض فرعونُ عن الحقّ بمَيْله، يعني :عن الإيمان حين قال} :ما أُرِيكُمْ إلّا ما أرى وما أهْدِيكُمْ إلّا سَبِيلَ الرَّشادِ] {غافر: ٢٩[،} وقالَ {فرعون لموسى – عليه السلام –: هو {ساحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ}.

كما قال الله سبحانه: { ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [الحج:٩]، أي: معرض بوجهه استكباراً واستنكافاً ليضل عن سبيل الله

قال تعالى: { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } [الذاريات:٤٠]، أي: طرحناهم مهملين لذكرهم، (فَنَبَذْنَاهُمْ) فالنبذ: الطرح والإلقاء بإهمال، ي قراءة عبد الله :{فَأَخَذْناهُ وجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُ } [الذاريات:٤٠]، {في اليم} أي: في البحر. قال مقاتل بن سليمان :{فأَخَذْناهُ} يعني: فرعون {وجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي اليَمِ} يعني: في نهر مصر النيل، فأُغرقوا أجمعين.

{وهو مليم}، رَجُلٌ مُلِيْمٌ . والمِلِيْمُ : الذي اسْتَحَقَّ اللَّوْمَ . (اللسان).

وقال مقاتل بن سليمان :{وهُوَ مُلِيمٌ}، يعني :مُذنبٌ.

قال تعالى: { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ } [الذاريات:٤١].وعاد هم القوم الذين بعث اليهم نبي الله هود عليه السلام.

هي ريح الدبور كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)، ووصفت بالدبور؛ لأنه لا خير فيها على الإطلاق، لا تلد أي نوع من أنواع الخير.

عن عبد الله بن عمرو –من طريق عطاء –قال :الرِّياح ثمانٍ: أربعٌ منها عذاب، وأربعٌ منها رحمة، فأما العذاب منها :فالقاصف، والعاصف، والعقيم، والصرصر، قال الله تعالى :{رِيحًا صَرْصَرًا فِي أيّامٍ نَحِساتٍ}[فصلت: ١٦]، قال :مشؤومات، وأما رياح الرحمة :فالناشرات، والمبشّرات، والمرسلات، والذّاريات.

والرياح على أقسام ثمانية ذكرها المفسرون في تفاسيرهم، { وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ } [الحجر:٢٢]، هناك رياح لواقح تلقح، أما هذه فريح عقيم لا فائدة فيها ولا خير، { إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ }عن عبد الله بن عباس –من طريق الضَّحّاك –في قوله} :الرِّيحَ العَقِيمَ{، قال :ريح لا بركة فيها، ولا منفعة، ولا ينزل منها غيث، ولا يُلْقَح منها شجر.}

{ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ } [الذاريات:٤١-٤٢] أي: كالعظام المتفتتة البالية.

قال مقاتل بن سليمان :{ ما تَذَرُ} تلك الريح{ مِن شَيْءٍ أتَتْ عَلَيْهِ}([1]) مِن أنفسهم وأنعامهم وأموالهم {إلّا جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ} يقول: إلا جعلته باليًا كالتُّراب، بعد ما كانوا مثل نخلٍ منقعرٍ صاروا رميمًا .

وروى مسلم عن عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ :كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَصَفَتْ الرِّيحُ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ قَالَتْ وَإِذَا

---

[1] - قال ابن حزم في الاحكام "قال تعالى { تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي لقوم لمجرمين } فصح بالنص عموم هذا اللفظ لأنه تعالى إنما قال إنها دمرت كل شيء على العموم من الأشياء التي أمرها الله تعالى بتدميرها."

وقال الشاطبي في الموافقات " فالحس دليل على أنها لم تدمر الجبال والأنهار وغيرها مما أتت عليه؛ فإنه خلاف المشاهد ".

والنكرة المسبوقة بمَن مِن اقوى سيق العموم .

تَخَيَّلَتْ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ :{ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا }.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ" متفق عليه. و "الصَّبَا" : الريح الشرقية ، و"الدَّبور"- بفتح الدال - : الريح الغربية .(المفهم)

قال تعالى: {وَفِي ثَمُود إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ } [الذاريات:٤٣].

عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد -في قوله} :وفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّى حِينٍ{، قال :ثلاثة أيام.

لأنهم لما عقروا الناقة قال لهم نبي الله صالح: { تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [هود:٦٥].

وقال مقاتل بن سليمان} :وفِي ثَمُودَ {آية} إِذْ قِيلَ لَهُمْ {قال لهم نبيُّهم صالح} :تَمَتَّعُوا حَتّى حِينٍ {يعني: إلى آجالكم.

وذلك بعد عقرهم الناقة قيل لهم {تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ} تمتعوا بما تيسر لكم من متع الحياة، تمتعوا أمر تهديد كما قال تعالى {أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [(٢٠٥ - ٢٠٧) سورة الشعراء] يعني تمتعوا بأنواع الملذات والمشتهيات، لكن ان جاءهم ما يوعدون فلا قيمة لذلك، فكما روى مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ."

{ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ } [الذاريات:٤٤-٤٥].

عن عمر بن الخطاب -من طريق عمرو بن ميمون الأودي -أنه قرأ ذلك» :فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعْقَةُ «بغير ألف.

ذكر ابنُ جرير (٢١/ ٥٤٣) هذه القراءة وقراءة مَن قرأ ذلك بالألف: {الصاعقة}، ثم رجّحها مستندًا لإجماع الحجة من القراء، فقال: «وبالألف نقرأ {الصاعقة}؛ لإجماع الحجة من القراء عليها.«

وذكرهما ابنُ عطية (٨/ ٧٩)، ثم قال معلّقًا: «وهي على القراءتين: الصيحة العظيمة.«

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب -في قوله :{فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ}، قال :العاتي: العاصي التارك لأمر الله - عز وجل.

والأصل في الصاعقة أنها نار تنزل من السماء يصحبها صوت مهول عظيم، فأطلقت على ذلك الصوت، وإن لم يكن معها نار، أهلكوا بالصيحة المهلكة {وَهُمْ يَنظُرُونَ} بالنهار، ينظرون: يبصرون، بالنهار، أو ينتظرون ما حدد لهم.(الذي حملهم على حملها على الانتظار ان الصاعقة لا تمهلهم لينظروا ولكن الله تعالى يقول { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)} والله تعالى اعلم)

وجملة { وهم ينظرون } حال من ضمير النصْب في { أخذتهم } ، أي أخذتهم في حال نظرهم إلى نزولها ، لأنهم لما رأوا بوارقها الشديدة علموا أنها غير معتادة فاستشرفوا ينظرون إلى السحاب فنزلت عليهم الصاعقة وهم ينظرون ، وذلك هول عظيم زيادة في العذاب فإن النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألماً كما أن النظر إلى النعمة يزيد المنعم مسرّة ، قال تعالى : { وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون } [البقرة : ٥٠] .

وقوله : { فما استطاعوا من قيام } تفريع على { وهم ينظرون } ، أي فما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتِهم بوادرَه . فالقيام مجاز للدفاع كما يقال : هذا أمر لا يقوم له أحد ، أي لا يدفعه أحد .

قال مقاتل بن سليمان :{فَما اسْتَطاعُوا مِن قِيامٍ}، يعني :أن يقوموا للعذاب حين غَشِيهم.

وعن قتادة بن دعامة –من طريق سعيد –في قوله{فَما اسْتَطاعُوا مِن قِيامٍ} قال :ما استطاع القوم نهوضًا لعقوبة الله –تبارك وتعالى–

عن عبد الملك ابن جُرَيْج، في قوله} :فَما اسْتَطاعُوا مِن قِيامٍ{، قال : لم يستطيعوا أن ينهضوا بعقوبة الله إذ نَزَلَتْ بهم .

وقيل : "ما قدروا على النهوض حين نزول العذاب" فالجالس ما استطاع أن يقوم، فضلاً عن كونه يستطيع الهرب، ما استطاع القيام، لا تحمله رجله، فكيف يهرب من عذاب الله؟

وقوله : { وما كانوا منتصرين }

عن قتادة بن دعامة –من طريق سعيد –قوله} :وما كانُوا مُنْتَصِرِينَ{، قال :ما كانت عندهم مِن قُوّة يمتنعون بها مِن الله – عز وجل .

قال تعالى: { وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [الذاريات:٤٦].

"قرأ الجمهور { وقوم } بالنصب بتقدير (اذكر) ، أو بفعل محذوف يدلّ عليه ما ذكر من القصص قبله ، تقديره : وأهلكنا قوم نوح ، وهذا من عطف الجُمل وليس من عطف المفردات .

وقرأه أبُو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلَف بالجر عطفاً على { ثمود } [الذاريات : ٤٣] على تقدير : وفي قوم نوح .

ورجّح ابنُ جرير: أنهما «قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار؛ فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.«

وزاد ابنُ عطية أن ذلك قُرأ بالرفع، ووجّهه، فقال: «وقرأ أبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث: (وقَوْمُ نُوحٍ) بالرفع، وذلك على الابتداء وإضمار الخبر.«

ومعنى { من قبل } أنهم أهلكوا قبل أولئك فهم أول الأمم المكذبين رسولهم أهلكوا .

وجملة { إنهم كانوا قوماً فاسقين } تعليل لما تضمّنه قوله : { وقوم نوح من قبل } . وتقدير كونهم آية للذين يخافون العذاب : من كونهم عوقبوا وأن عقابهم لأنهم كانوا قوماً فاسقين ."

{وفي ثمودَ} "ممنوع من الصرف، ثمود المراد به القبيلة، منعت للعلمية والتأنيث، ثمود، {وقوم نوح}، قوم مصروف عطف على ثمود فيجر بالكسرة الظاهرة، نوح أيضاً مصروف،لأنه ثلاثي ساكن الوسط. والسبب في منع الاسم من الصرف ثقل الصرف، والثلاثي ساكن الوسط خفيف، فإذا وجدت العلتان العلمية والتأنيث كما هنا يمنع من الصرف .مثل عن فاطمةَ وابي هريرةَ .

(من) حرف جر، (قبلُ) مجرور بـ (من) لكنه مبني على الضم،لأنه حذف المضاف مع أنه منوي يعني نوي معناه.

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [(٤٦) سورة الذاريات] العلة الفسق، والفسق كما يطلق على ارتكاب المحرمات التي لا تخرج من الدين يطلق أيضاً على الكفر، يطلق أيضاً على الكفر {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا} [(١٨) سورة السجدة] يعني هو مقابل بالإيمان، فالفاسق هو الكافر، {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [(٤٦) سورة الذاريات].

قال تعالى: { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ } [الذاريات:٤٧]

عن عبد الله بن عباس في قوله :{والسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ}، قال :بقُوّة .

وأصله جَمع يد ، ثم كثر إطلاقه حتى صار اسماً للقوة ، كقوله تعالى : { واذكر عبدنا داود ذا الأيد } في سورة ص (١٧) . يعني ذا القوة في عبادة الله.وهذه الآية ليست من آيات الصفات والسبب لأن الأيدي ليست مضافة إلى اللَّه سبحانه بخلاف آيات الصفات ولأن الأيد هنا كلمة مفردة وليست جمعا لليد. فرجل أيد قوي، ومنه قوله تعالى: {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} [البقرة:٨٧] أي قويناه به

والمعنى : بنيناها بقدرة لا يقدر أحد مثلها .

قال ابن كثير " { وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } ، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي."

قال عبد الله بن عباس :{وإنّا لَمُوسِعُونَ} قادرون وعنه ايضا لَمُوسعون الرّزق على خَلْقنا"

قال الضَّحّاك بن مُزاحِم{ وإنّا لَمُوسِعُونَ} أغنياء)

وقال الحسن البصري :{وإنّا لَمُوسِعُونَ} مُطيقون

وعن ابن أبي نجيح، في قوله} :وإنّا لَمُوسِعُونَ{، قال :أن نخلق سماء مثلها)

وقال مقاتل بن سليمان :{وإنّا لَمُوسِعُونَ}، يعني :نحن قادرون على أن نُوسعها كما نريد.

وتقديم { السماء } على عامله للاهتمام به ، ثم بسلوك طريقة الاشتغال زاده تقوية ليتعلق المفعول بفعله مرتين : مرة بنفسه ، ومرة بضميره ، فإن الاشتغال في قوة تكرر الجملة . وزيد تأكيده بالتذييل بقوله : { وإنا لموسعون } . والواو اعتراضية .

والموسِع : اسم فاعل من أوسع ، إذا كان ذا وُسع ، أي قدرة . وتصاريفه جائية من السَّعة ، وهي امتداد مساحة المكان ضد الضيق ، واستعير معناها للوفرة في أشياء مثل الأفراد مثل عمومها في { ورحمتي وسعت كل شيء } [الأعراف : ١٥٦] ، ووفرة المال مثل { لينفق ذو سعة من سعته } [الطلاق : ٧] ، وقوله : { على الموسع قدره } [البقرة : ٢٣٦] ، وجاء في

أسمائه تعالى الواسع { إن اللَّه واسع عليم } ، قال تعالى : { إن اللَّه واسع عليم } [البقرة : ١١٥] ومنه قوله هنا : { وإنا لموسعون } .

وأكد الخبر بحرف (إنّ) لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر سعة قدرة الله تعالى ، إذ أحالوا إعادة المخلوقات بعد بِلاها .

قال ابن حزم : (ولا يجوز أن يسمى الله تعالى ولا أن يخبر عنه إلا بما سمى به نفسه أو أخبر به عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أو صح به إجماع جميع أهل الإسلام المتيقن ولا مزيد ، وحتى وإن كان المعنى صحيحا فلا يجوز أن يطلق عليه تعالى اللفظ ، وقد علمنا يقينا أن الله عز وجل بنى السماء قال تعالى : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ }[الذريات:٤٧] ولا يجوز أن يسمى بناء وأنه تعالى خلق أصباغ النبات والحيوان وأنه تعالى قال : {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ{[البقرة:١٣٨] ولا يجوز أن يسمى صباغا وهكذا كل شيء لم يسم به نفسه) .

واما ما يزعمه اصحاب الاعجاز العلي من ان الاية تدل على ان الكون ما يزال باتساع فهذ التفسير لا يعرفه السلف وهو متضمن للتخطئة لهم فإذا اختلف السلف في تفسير الآية على قولين، لم يجز لمن بعدهم إحداث قول ثالث يخرج عن قولهم.

قال تعالى{ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ}

قال عبد الله بن عباس :{فَنِعْمَ الماهِدُونَ} نِعم ما وطَّأتُ لعبادي .

أي: جعلناها فراشًا للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن، وغراس، وزرع، وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش، قد يكون صالحًا للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك فقال: { فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ } الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكمته] ورحمته وإحسانه.

وصيغة الجمع في قوله: {الْمَاهِدُونَ} للتعظيم. والمراد منه تلقين الناس الثناء على الله فيما صنع لهم فيها من منة ليشكروه بذلك الثناء كما في قوله :{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢].

وكون الارض مبسوطة ممهدة لا ينافي كروية الارض لان كروية الارض لا تظهر للناظر البسيط لسعة الارض والله سبحانه يخاطب الناس بحسب ما يرون كما قال تعالى عن قوم يونس {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ }والله تعالى يعلم كم عددهم لكنه بحسب المخاطبين.

وقد نُقل عن ابن حزم والقرطبي القول بكروية الارض اعتماداً على أدلة من القرآن والسنة، خاصةً من آية "يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ"، حيث فهموا "التكوير" بمعنى الإدوار والجمع على شكل الكرة، مع التأكيد على أن الأرض مسطحة ومُمهدة للعيش كما وصفها القرآن.

قال ابن حزم رحمه الله ": البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها " انتهى من "الفصل في الملل والأهواء والنحل" (٧٨/٢).

وقال ابن كثير " ولا منافاة بين القول بكرويتها والقول بانبساطها ، فهي في حقيقتها وجملتها العظيمة الكبيرة الهائلة : كروية ، وهي في عين الناظر مسطحة مستوية ، كما يظهر لكل الخلق. "

وقال السعدي " واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة ، فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.".

الموسع في قوله تعالى : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [الذاريات:٤٧] ، والماهد في قوله سبحانه : {وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ } [الذاريات:٤٨] ، والفاعل في قوله : { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء:١٠٤] وكثير من الذين توسعوا في جمع الأسماء ولم يلتزموا شرط الإطلاق وقعوا عند إحصاء الأسماء في اضطراب شديد حتى بدا جمعهم مبنيا على الاجتهادات الشخصية دون القواعد العلمية أو الأصول المنهجية ، فأدخل بعضهم ما استحسنه من الأسماء واستعبد منها ما يشاء

وعلى ذلك فالأسماء المقيدة بالإضافة لا تدخل في الأسماء الحسنى ، وإنما هي من قبيل الصفات الاسمية التي يجوز الدعاء بها على الوضع الذي قيدت به ، ومعلوم أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء ، وباب الأفعال أوسع من باب الصفات باب الأخبار أوسع من باب الأفعال .

قوله تعالى{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ عَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [(٤٩) سورة الذاريات]

قال مقاتل بن سليمان: يعني: صنفين، يعني :الليل والنهار، والدنيا والآخرة، والشمس والقمر، والبَرّ والبحر، والشتاء والصيف، والبَرْد والحرّ، والسَّهل والجبل، والسَّبخة والعذبة؛ {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} فيما خلق أنّه ليس له عدل ولا مثيل، فتوحِّدونه) .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال :ذكرًا وأنثى، ذاك الزّوجان .وقرأ:{ وأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ } [الأنبياء: ٩٠]، قال :امرأته .وهذا وان يوجد في بعض المخلوقات فقد لا يوجد في غيرها.

قال ابن كثير " أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات جن وإنس، ذكور وإناث والنباتات، ولهذا قال: { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له."

وذلك لنعم الله التي أنعم بها عليكم في تقدير ذلك، وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

" {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(٥٠) سورة الذاريات] بين الإنذار" بين الإنذار.

قال عبد الله بن عباس :{فَفِرُّوا إلى اللَّهِ} فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته

فلما دعا العباد النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه، ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، و من الغفلة إلى ذكر الله فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له، نهاية المراد والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه، فرارًا، لأن في الرجوع لغيره، أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه، { إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } أي: منذر لكم من عذاب الله. فان من خاف البشر فر منهم، غير أن من خاف الله فإنه لا يفر إلا إليه.

والفرار في القران عدي بـ "إلى " في مواضع كثيرة كقوله تعالى: { لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا } [الكهف:١٨] وقال موسى لفرعون : { فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ } [الشعراء:٢١] ، { فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ } [المدثر:٤٩-٥١] ، { قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ } [الجمعة:٨] لكنه هنا عدي بـ(إلى) فإن الله تبارك وتعالى هو الوحيد الذي تفر منه إليه؛ لأن الله عز وجل قال: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا } [الرحمن:٣٣] هذا تمام الإحاطة بالعباد، فالله محيط بالسموات والأرض فإذا أردت أن تفر منه فإلى من تذهب وهو محيط بالعالمين؟! فأننا لا نستطيع أن نفر من علمه. ولا من قدره ولا من قدرته واحاطته بخلقه .. وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله.. وأنه لا منجاة من الله إلا إليه.. ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله.. ولا يظن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع أن يختفي.

ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعلن هذا الفرار إلى الله كل ليلة، الأذكار الموظفة التي علمناها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذكار النوم كما رواه البخاري و مسلم من حديث البراء بن عازب ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم نم على شقك الأيمن، وقل: اللهم ألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك) هذا هو الفرار (لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت).

لما تقول هذا الذكر في كل ليلة فكأنك تستحضر هذا الفرار إلى الله عز وجل.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

فترك المأمور واجتناب المحظور يؤدي إلى تسليط الكافر وتسليط الذل والمهانة والانتكاس، والدواء هو الرجوع إلى الله والفرار إليه.

{وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(٥١) سورة الذاريات]

{ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله، من الأوثان، والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف، والرجاء والدعاء، والإنابة.

ويقدر قبل ففروا قل لهم" قل لهم، قل لقومك بعد أن نظروا في أحوال الأمم الماضية، وما فعل الله بهم، وما أنزل بهم من عقوبات، قل لهم: فروا إلى الله بتوحيده، بعبادته، {إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(٥١) سورة الذاريات] فلا تتركوا هذا التوحيد، وهذه الأوامر.

قال تعالى {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ[1] مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) }[٥٢-٥٣ سورة الذاريات]

قال مقاتل بن سليمان :{كَذلِكَ} يعني: هكذا {ما أتى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} يعني: الأمم الخالية {مِن رَسُولٍ إلّا قالُوا} لرسولهم: هو {ساحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ} كقول كُفّار مكة لمحمد – صلى الله عليه وسلم .

"وَزِيَادَةُ مِنْ فِي قَوْلِهِ: مِنْ رَسُولٍ لِلتَّنْصِيصِ عَلَى إِرَادَةِ الْعُمُومِ، أَيْ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ قَالَ فِيهِ فَرِيقٌ مِنْ قَوْمِهِ: هُوَ سَاحِرٌ، أَوْ مَجْنُونٌ، أَيْ قَالَ بَعْضُهُمْ: سَاحِرٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَجْنُونٌ، مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ دُونَ السِّحْرِ إِذْ لَمْ يَكُنِ السِّحْرُ مَعْرُوفًا فِي زَمَانِهِمْ قَالُوا:{ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ} [الْمُؤْمِنُونَ: ٢٥] . وَقَدْ يَجْمَعُونَ الْقَوْلَيْنِ مِثْلَ قَوْلِ فِرْعَوْنَ فِي مُوسَى.

وَهَذَا الْعُمُومُ يُفِيدُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُ قَوْمٌ مِنَ الْأَقْوَامِ الْمَذْكُورِينَ إِلَّا قَالُوا لِرَسُولِهِمْ أَحَدَ الْقَوْلَيْنِ، وَمَا حُكِيَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِهِمْ فِي آيَاتٍ أُخْرَى بِلَفْظِهِ أَوْ بِمُرَادِفِهِ كَقَوْلِ قَوْمِ هُودٍ { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ }[هود: ٥٤] .

وَأَوَّلُ الرُّسُلِ هُوَ نُوحٌ كَمَا هُوَ صَرِيحُ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الشَّفَاعَةِ. فَلَا يُرَدُّ أَنَّ آدَمَ لَمْ يُكَذِّبْهُ أَهْلُهُ، وَأَنَّ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلَ يُوشَعَ وَأَشْعِيَا، لَمْ يُكَذِّبْهُمْ قَوْمُهُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: مِنْ رَسُولٍ، وَالرَّسُولُ أَخَصُّ مِنَ النَّبِيءِ.

وَإِسْنَادُ الْقَوْلِ إِلَى ضَمِيرِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ الْحَاضِرِينَ إِسْنَادٌ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ قَوْلُ أَكْثَرِهِمْ فَإِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْأَقْوَامِ وَالْقَبَائِلِ تَجْرِي عَلَى اعْتِبَارِ الْغَالِبِ".(التحرير).

{أَتَواصَوْا بِهِ } الِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيبِ مِنْ تَوَاطُئِهِمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، أَيْ كَأَنَّهُمْ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَنْ يَقُولُوهُ. فَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ لَازِمِهِ وَهُوَ التَّعْجِيبُ لِأَنَّ شَأْنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ.

وَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ لِأَنَّ تَمَاثُلَ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ فِي مَقَالَةِ التَّكْذِيبِ يُثِيرُ سُؤَالَ سَائِلٍ عَنْ مَنْشَأِ هَذَا التَّشَابُهِ.

---

[1] – أو هنا يمكن ان تكون للترديد بمعنى لا يخلو امره اما ان يكون ساحرا او ان يكون مجنونا.

ويمكن ان تكون أو هنا للتقسيم بمعنى ان منهم من قال ساحر ومنهم من قال مجنون كما سبق في قوله تعالى {فهم في امر مريج } أي مضطرب.

وقد يكون القائل الواحد تارة يقول كذا وتارة يقول كذا لانه لا يثبت على اصل صحيح.

ومثال مجيء أو للتقسيم {وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا } أي بعضهم قال كونوا هودا تهتدوا وبعضهم قال كونوا نصارى تهتدوا.فهي هنا للتقسيم قطعا وليست للتخيير .

وَفِعْلُ الْوَصِيَّةِ يَتَعَدَّى إِلَى الْمُوصَى عَلَيْهِ بِالْبَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ }[الْعَصْر: ٣] .

قال عبد الله بن عباس :{بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ} حملهم الطغيانُ فيما أعطَيتهم ووسّعتُ عليهم على تكذيبك.

وبَلْ إِضْرَابٌ عَنْ مُفَادِ الِاسْتِفْهَامِ مِنَ التَّشْبِيهِ أَوْ عَنِ التَّوَاصِي بِهِ، بِبَيَانِ سَبَبِ التَّوَاطُؤِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَإِنَّهُ إِذَا ظَهَرَ السَّبَبُ بَطَلَ الْعَجَبُ. أَيْ مَا هُوَ بِتَوَاصٍ وَلَكِنَّهُ تَمَاثَلٌ فِي مَنْشَأِ ذَلِكَ الْقَوْلِ، أَيْ سَبَبُ تَمَاثُلِ الْمَقَالَةِ تَمَاثُلُ التَّفْكِيرِ.

والضمير للقول، يعنى: أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه.

كما قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم.

وكما قال تعالى { {مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} .

قوله تعالى { بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ} أى لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

فَأَنَّ طُغْيَانَهُمْ وَكِبْرِيَاءَهُمْ يَصُدُّهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولٍ يَحْسَبُونَ أَنْفُسَهُمْ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَإِذْ لَا يَجِدُونَ وَصْمَةً يَصِمُونَهُ بِهَا اخْتَلَقُوا لِتَنْقِيصِهِ عِلَلًا لَا تدخل تَحت الضَّبْط وَهِيَ ادِّعَاءُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ أَوْ أَنَّهُ سَاحِرٌ "

وفي هذا تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، لأن الإنسان إذا علم أن غيره أصابه ما أصابه تسلى بذلك، وهان عليه الأمر، ولهذا قالت الخنساء تماضر وهي ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرة الباكين حولي.... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ...أسلي النفس عنه بالتأسي

وقد دل لذلك قول الله تبارك وتعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون }. لأن الإنسان إذا شاركه غيره في العذاب هان عليه، لكن يوم القيامة لا ينفع الإنسان أن يشاركه غيره في عقوبته، والمهم أن في هذه الجملة بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام تسلية حتى لا يحزن، فإن ما أصابه قد أصاب غيره، وفيها أيضاً دليل على أن المكذبين للرسل طريقهم واحدة، ولو تباعدت أزمانهم، ولو تباعدت أقطارهم، لأن المجرم أخو المجرم، فالطريقة واحدة.

قال تعالى {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون} وهو يعلم أن قلوب هؤلاء كقلوب أولئك الأولين فيكذبون بها فيستحقون بها ما استحقه أولئك كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم قال تعالى {قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم} وقال تعالى عن أهل الكتاب { يضاهئون قول الذين كفروا من قبل }

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ" متفق عليه.

قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَوَلَّ يَا مُحَمَّدُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ مِنْ قُرَيْشٍ، يَقُولُ: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ فِيهِمْ أَمْرُ اللَّهِ، يُقَالُ: وَلَّى فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ: إِذَا أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ.

عن علي بن أبي طالب، قال :لَمّا نَزَلَتْ :{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ} لم يَبقَ مِنّا أحدٌ إلا أيقن بالهَلَكة؛ إذ أُمر النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – أن يتولّى عنّا؛ فنَزَلَتْ :{وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المؤْمِنِينَ} فطابتْ أنفسُنا .

وعنه ايضا –من طريق مجاهد –في قوله :{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ}، قال :ما نَزَلَتْ علينا آيةٌ كانت أشدّ علينا منها، ولا أعظم علينا منها، فقلنا :ما هذا إلا مِن سَخْطةٍ أو مقْتٍ .حتى نَزَلَتْ {وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المؤمنين}.

وعنه –من طريق مجاهد –في قوله :{ وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المؤْمِنِينَ}، قال :ذَكِّر بالقرآن.

وعن الضَّحّاك بن مُزاحِم:{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ} أنّ التولي عنهم منسوخ؛ بأنّه قد أُمِر بالإقبال عليهم بالموعظة، قال تعالى :{يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ }[المائدة: ٦٧.]

وقال محمد بن شهاب الزُّهريّ :وقال تعالى في سورة الذّاريات{ فتول عنهم فما أنت بملوم}، نُسِختْ بقوله :{وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين}

وعن سلمان بن حبيب المحاربي قال : من وجد للذكرى في قلبه موقعاً فليعلم أنه مؤمن قال الله { وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين } .

قال ابن كثير " أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة ".

قال ابن عطية " وقوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أي عن الحرص المفرط عليهم، وذهاب النفس حسرات، ويحتمل أن يراد: فتول عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإسلام فلست بمصيطر عليهم ولست بِمَلُومٍ إذ قد بلغت، فنح نفسك عن الحزن عليهم، وذكر فقط، فإن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قضي له أن يكون منهم في ثاني حال، وعلى هذا التأويل: فلا نسخ في الآية. إلا في معنى الموادعة التي فيها، إن آية السيف نسخت جميع الموادعات."

والآية أفادت فقهاً في الدعوة إلى الله وهو: أن الشخص إذا وضح للقوم الآيات، وذكر القوم بالله وبحدود الله وبشرعه برفق ولين، وكرر عليهم ذلك، فأبوا إلا الرفض وأبوا إلا العناد وأبوا إلا النيل منه والطعن فيه، بل والطعن في الشرع ومن جاء به، فله حينئذٍ أن يعرض عنهم ولا يستمر في النصح والتذكير، ولا لوم عليه. ..فحينئذٍ هناك وقت على الداعية إلى الله فيه ألا يهين نفسه، وألا يهين أيضاً دعوته التي يحملها إذا كان من أمامه يستعملون البذاءات، ويستعملون الألفاظ السخيفة للطعن فيه وفي الدين، فحينئذٍ أمر الله وتوجيه الله لنا: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ}.

قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات: ٥٧] أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: { إِلا لِيَعْبُدُونِ } أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها([1]) وهذا اختيار ابن جرير.(فحملوا الآية على الارادة الكونية وان العبادة هنا بمعناها العام وهي عبادة الاضطرار)

---

[1] – **طاوعا هي عبودية الاختيار وكرها هي عبودية الاضطرار كما قال الله تعالى: { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً } فهذه العبودية العامة، وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة كما قال تعالى: { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } ونحوها.**

وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: { إِلا لِيَعْبُدُونِ } أي: إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون. (يعني ان المراد بالآية الارادة الشرعية التي قد تتحقق او لا تتحقق بحسب ما اقتضته حكمة الله عز وجل فان الاختلاف بين العباد امر لابد منه كما قال تعالى في سورة هود {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين }).

وقال مقاتل بن سليمان :{وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ}، يعني :إلا ليُوحّدون. (لان اعظم العبادة التوحيد).

قال القرطبي " قيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون. قال القشيري: والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ} [الأعراف: ١٧٩] ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا} [الحجرات: ١٤] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفراء والقتبي. وفي قراءة عبدالله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ من المؤمنين إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}([1]) وقال علي رضي الله عنه: أي وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. واعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً} [التوبة: ٣١]."

هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

وإذا تخلى الواحد من الجن والإنس من المكلفين منهم عن تحقيق هذه الغاية صار لا فرق بينه وبين سائر المخلوقات، لا فرق بينه وبين البهائم غير المكلفة، إلا أن التبعة عليه أعظم؛ لأن غير المكلفين لا يعاقبون ولا يؤاخذون، ولذا يقول الكافر حينما يرى البهائم بعد الاقتصاص منها والمقاصة تكون تراباً، فحينئذ يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [(٤٠) سورة النبأ].

قوله تعالى { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ }

عن عبد الله بن مسعود، قال :أقرأني رسول الله – صلى الله عليه وسلم { إِنِّي أنا الرَّزّاقُ ذُو القُوَّةِ المتِينُ}. والقراءة شاذة. انظر: مختصر ابن خالويه ص ١٤٦.

قال مقاتل بن سليمان { ما أُرِيدُ مِنهُمْ مِن رِزْقٍ} يقول: لم أسألهم أن يرزقوا أحدًا، {وما أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ} يعني: أن يرزقون.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِى فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِى. قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِى فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِى يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِى. قَالَ يَا

---

[1] –والقراءة الاحادية اذا صح سندها فهي تفسر القراءة المتواترة.

رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِى فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِى ».رواه مسلم.

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلاّ تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » .وصححه الالباني.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق، فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ}ومجيء الجملة معرفة الجزأين يدل على الحصر.

أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، {ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته، أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

روى مسلم عن سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِى إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِىِّ عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِىِّ –صلى الله عليه وسلم– فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ ». قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِىُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ."

قال مقاتل بن سليمان:{ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو القُوَّةِ} يعني: البطش في هلاكهم ببدر{ المتِينُ} يعني: الشديد

فالانسان مأمور بالعبادة ومن العبادة التوكل على الله تعالى في الارزاق مع الاخذ بالاسباب كما جاء عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " . رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الالباني.

قوله تعالى {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ) ٥٩}

عن عبد الله بن عباس في قوله :{ذَنُوبًا}، قال :دَلْوًا.

وعنه قال: للذين ظلموا عذابًا مثل عذاب أصحابهم فلا يستعجلون.

عن مجاهد بن جبر –من طريق ابن أبي نجيح –في قوله { ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ}، قال :سَجْلًا من العذاب مثل عذاب أصحابهم

{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} [(٥٩) سورة الذاريات] ظلموا أنفسهم بالكفر من أهل مكة وغيرهم" والظلم يطلق على أشياء منها: ما هو أعظم الظلم وهو الشرك {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان] {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] قال: الشرك، ومنه الظلم ظلم الإنسان لنفسه وظلم الإنسان لغيره بالعظائم والكبائر والموبقات والصغائر أيضاً كله ظلم للنفس {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} [(٣٢) سورة فاطر] ظالم لنفسه بالمعاصي سواءً كانت كبيرة كالشرك فما دونه إلى صغائر الذنوب.

{ذَنُوبًا} [(٥٩) سورة الذاريات] عن الحسن البصري –من طريق شهاب بن شُرْنُفة –في قوله :{ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ}، قال :دَلْوًا مثل دَلْو أصحابهم

يعني نصيباً من العذاب" أصل الذنوب الدلو المملوء ماءاً، مثل ذنوب نصيب أصحابهم، طيب النصيب عبر عنه بالذنوب؛ لأن القوم الذين يردون الموارد من المياه إنما يكون نصيبهم بالدلو يؤخذ من البئر.فكان من عادة العرب انهم اذا استقوا من بئر يستقون بذَنوب (وهو الدلو الكبير) تقاسموا بينهم دلو لهذا ودلوا لهذا لان الاول سيأخذ ماءً صافيا والاخير ستكدر الماء الدلاء فلكي يتساووا في الصفاء والكدورة يجعلون لكل واحد دلواً من ماء وهو الذنوب ، فعبر بالنصيب بآلته التي يستخرج بها، الذي هو الذنوب، هؤلاء لهم ذنوب وهؤلاء لهم ذنوب، وذاك من الماء وهذا من العذاب.

مثل ذنوب مثل نصيب أصحابهم الهالكين قبلهم" من الأمم السابقة الذين قص الله علينا أخبارهم .

كما قال تعالى في سورة الزمر { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) }.

{فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ} [(٥٩) سورة الذاريات]

قال مقاتل بن سليمان: نصيبًا من العذاب في الدنيا، مثل نصيب أصحابهم في الشرك، يعني :الأمم الخالية الذين عُذِّبوا في الدنيا { فَلا يَسْتَعْجِلُونِ} العذاب تكذيبًا به.

قوله تعالى {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات}الآية وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم،. المراد بالسيئة هنا: العقوبة وإنزال العذاب قبل الحسنة أي قبل العافية، وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله {ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده}، وكقوله: {ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغته وهم لا يشعرون}، وسبب طلبهم لتعجيل العذاب هو العناد، وزعم أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –كاذب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه، كما قال تعالى {ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه}، وكقوله: {يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين}، وقوله {قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين}.

فلا يستعجلون نصيبهم من العذاب، فالذي حل بغيرهم لا بد أن يحل بهم، إن أخرهم إلى يوم القيامة فالعذاب بالنار كما قال تعالى { يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين } وإن أخذهم فأخذه أليم شديد كما قال عليه الصلاة والسلام

((إن الله –جل وعلا– ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته)) {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} [(٤٢) سورة إبراهيم] يعني هذا آخر حد لهم، وإلا قد يؤخذون، وقد يأخذهم بالعذاب قبل ذلك.

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ }

قال مقاتل بن سليمان :{ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا }يعني: كفار مكة {مِن يَوْمِهِمُ}في الآخرة {الَّذِي }فيه{ يُوعَدُونَ} العذاب .

نقل ابنُ عطية (٨/ ٨٤) في وقت الوعيد قولين، فقال: «وقال جمهور المفسّرين: هذا التوعّد هو بيوم القيامة. وقال آخرون – ذكره الثعلبي–: هو بيوم بدر..

تم بحمد الله تعالى

جمع واعداد

محمد مريس الحجاجي

المصادر

١–تفسير الطبري.

٢–تفسير ابن كثير.

٣ – تفسير ابن عطية.

٤–تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

٥– مجموع الفتاوى لابن تيمية.

٦–الرسالة التبوكية لابن القيم..

٧-تفسير الكشاف للزمخشري.

٨-تفسير السعدي.

٩- تفسير اضواء البيان للشنقيطي.

١٠-. السهيل لعلوم التنزيل لابن جزي.

١١-تفسير المجموع الثمين لابن عثيمين .

١٢-موسوعة التفسير بالمأثور لمجموعة مؤلفين.

١٣- البحر المديد لابن عجيبة .

١٤- لسان العرب لابن منظور.

١٥- التبيان في اقسام القران لابن القيم.

١٦- نزهة الاعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي .

١٧- مذكرة اصول الفقه للشنقيطي .

١٨- البحر المحيط لابن حيان الاندلسي.

١٩- جمهرة اللغة لابن دريد.

٢٠-الموافقات للشاطبي.

٢١- تهذيب اللغة للازهري

٢٢- الاحكام لابن حزم.

٢٣-. التعليق على الجلالين لعبدالكريم الخضير.

٢٤- تفسير السورة لمصطفى العدوي.

٢٥- التعليق على المصباح المنير لخالد السبت .